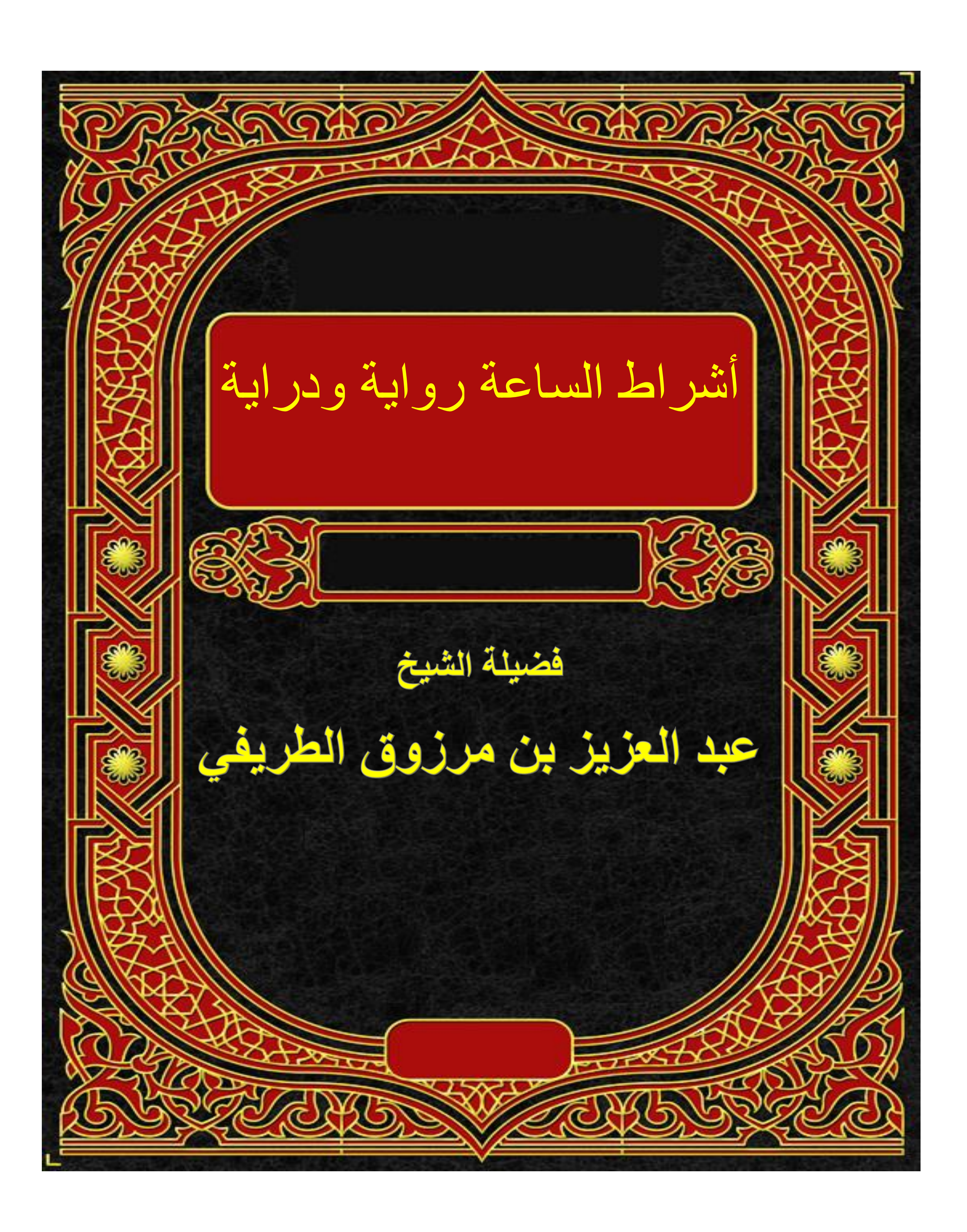

أشراط الساعة رواية ودراية
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

كثيرة هي أشراط الساعة، والمرجع في معرفة تلك الأشراط هو الكتاب والسنة الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ، مع عدم التعويل على ما تذكره كثير من المصنفات الواردة في الفتن وأشراط الساعة؛ لما يصاحبها من ذكر للأحاديث الضعيفة والمنكرة والتأويلات البعيدة، وتظهر حكمة معرفتها والاطلاع عليها في أنها تدعو المسلم إلى المبادرة بالعمل والإحسان والإكثار من الطاعة، وتبصره بالواجب عليه عند حصول الفتن الواردة قبل قيام الساعة.

- **أهمية إنزال السنة مع القرآن**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الله جل وعلا إنما خلق الخلق لعبادته، ويسر لهم السبل، وجعل لهذه السبل أسباباً يعرفون فيها معالم الحق وطرائقه ونهجه، والقرائن التي تدل عليه، وجعل الله سبحانه وتعالى صراطه مستقيماً لا معوجاً، يصل فيه السالك إلى غايته بأيسر وقت وأسهله، ومن غير أن يسلك طرقاً معوجة لا يرى غايته ببصره، وإنما يرى مواقع قدميه.

وقد جعل الله جل وعلا صراطه مستقيماً، وحبله متيناً، مستقيماً يصل فيه الإنسان إلى الطريق بأوضح الحجج، وجعله الله جل وعلا بيناً ظاهراً لا تشوبه شائبة من الظلمة والغبش، فإن كانت ثمة ظلمة من الفتن أو الجهل أزاحها الله سبحانه وتعالى بدلائل الحق من الكتاب والسنة.

ولقد أنزل الله جل وعلا كتابه على نبيه عليه الصلاة والسلام، وأنزل معه سنته؛ ولهذا كان الكتاب والسنة وحيين منزلين من الله جل وعلا، فالسنة موصوفة بالإنزال كالقرآن؛ والله جل وعلا في كتابه العظيم أخبر عن حال رسول الله ﷺ في بلاغه لأمته: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4] يعني: كلام النبي عليه الصلاة والسلام وفعله، وتقريره لما يفعله أصحابه بالسكوت بعلامة رضاً، أي: أنه من رضا الله جل وعلا.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى طاعة نبيه عليه الصلاة والسلام، وقرنها بطاعته جل وعلا في ثلاثين موضعاً من كتابه العظيم، وجاء الأمر بذلك أيضاً في كلام رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان الإسناد في الدين لا يقف عند محمد ﷺ، كما روى الخطيب البغدادي في كتابه "الكفاية" من حديث أحمد بن زيد بن هارون أنه قال: (إنما هو وحي الله جل وعلا وشريعته الكاملة، إنما هو صالح عن صالح، وصالح عن تابع، وتابع عن صاحب، وصاحب عن رسول الله، ورسول الله عن جبريل، وجبريل عن الله)، فهذه الشريعة كلها من الله سبحانه وتعالى، ومن قدح في السنة بالجملة فهو قادح بالقرآن؛ ولهذا السنة هي قسيمة للقرآن وموضحة ومبينة له.

ومن أراد أن يفهم الشريعة على وجهها فعليه أن يقرن مع القرآن السنة، وإلا قد وقع في كثير من الضلال والغي، وقد وقع في الأزمنة المتأخرة كثير من أهل الضلال والفتنة والشر والجهل على تنوع صنوفهم، وكثرة حججهم في التملص من سنة رسول الله

ﷺ بحجج واهية، اتباعاً لمشارب وأهواء، وطمعاً في الوصول إلى غايات، وإشباع النزوات، سواء نزوات نفسية، أو غير نفسية، وكل هذا قد بينه رسول الله ﷺ.

تأييد الله لنبيه بالمعجزات

وإن من أعظم ما عضد الله جل وعلا به نبيه عليه الصلاة والسلام من المعجزات ما جعله رسول الله ﷺ علامة لمن يأتي من أجيال على اختلاف الحقب والبلدان، فهي علامة على صدق رسول الله ﷺ المخبر، والنبي عليه الصلاة والسلام قد جعل الله جل وعلا بين يديه من الحجج البينة الظاهرة بعد نزول القرآن، وجعل من المعجزات الظاهرة ما يشاهدها الناس بين أيديهم، كانفلاق القمر فلقتين، ونبع الماء من بين يديه عليه الصلاة والسلام، وإخباره بالغائب، وغيرها مما حصل لرسول الله ﷺ من المعجزات التي يطول ذكرها.

وقد صنف العلماء جملة من المصنفات في هذا الباب، ويسميه العلماء بدلائل النبوة، وقد أدرج العلماء عليهم رحمة الله جملة منها فيما يسمى بكتب العقائد؛ ولهذا لا يخلو كتاب من كتب السنة على طرائق الأئمة المتقدمين إلا ويدرجون هذه المسائل في كتب السنة، ولا أدل على ذلك من طرائق الأئمة في الكتب الستة كالبخاري و مسلم و أبي داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه ، وأضرابهم كالدارمي و ابن خزيمة و ابن حبان ، وغيرهم من أئمة الإسلام، فهم يدرجون أمثال هذه الأمور في الإيمان، وفي مسائل الغيب، فإن لها أثراً في تصديق كلام رسول الله ﷺ، واتباع الهدي.

والمعجزات أثرها على الحاضر أكثر ممن يأتي، وذلك أن من يأتي يكون إيمانه بهذه المعجزات واقفاً على ثبوت الخبر الوارد فيها، فإن كان من المقطوع المتواتر ككلام الله جل وعلا، ومتواتر السنة أخذ به، وإن كان مما ليس بمتواتر فإن الإيمان يتوقف على ثبوت ذلك، وهذا يتردد بين اليقين والظن، ويرجع فيه إلى كلام العلماء عليهم رحمة الله تعالى في أبواب علوم المصطلح وقواعده، ولا حاجة إلى إيراده هنا.

وبقي شيء قد أنعم الله جل وعلا به على هذه الأمة، وهو العلامات التي يجعلها الله جل وعلا أمارة على صدق مُحَمَّد صلى الله وعليه وسلم فيما يخبر به مما يأتي في الأزمنة، وإن كان يتضمن في ذاته شراً على فئة معينة في ظاهر أمره، إلا أن مآله إلى خير، فيزيد الإيمان في القلوب ويثبته، ويغرس الإيمان في قلوب كثير من الناس ممن لم يطرأ عليه الإيمان من قبل، ولهذا يؤمن بعيسى عليه السلام خلق كثير، حتى إن من اليهود من يؤمن بعيسى لما ينزله الله جل وعلا عند بيت المقدس، وهذا ظاهر في كلام الله جل وعلا على قول جماعة من المفسرين من أصحاب رسول الله صلى لله عليه وسلم كعبد الله بن عباس و عبد الله بن مسعود وغيرهم، فيؤمن به خلق كثير، وإن كان في نزول عيسى شر لمن كتب الله جل وعلا عليه الشر من أرباب الضلال والزيغ من أتباع المسيح الدجال كما يأتي بيانه.

الغيب وخصوصيته بالله تبارك وتعالى

والله جل وعلا قد جعل الغيب من خصوصياته لا ينازعه في ذلك أحد، ومن نازعه في ذلك فقد أشرك مع الله عز وجل غيره، ومن

آمن بهذا الشيء فقد خرج من ملة الإسلام إن كان قد دخل في الإسلام قبل ذلك.

ولا يؤمن أحد بالإسلام على وجه الحقيقة، ويثبت معه حينئذٍ وصف الإسلام إلا ويؤمن بأن الغيب من خصوصية الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل:65]، والاستثناء هنا في خصوصية الله سبحانه وتعالى أن الله جل وعلا إذ استثنى الخلق من شيء، وجعله من خاصته اللائق ألا يشركه أحد من خلقه على الإطلاق إلا بخصوصية بعض الأحوال في بعض الأزمنة والأمكنة، مما خص الله جل وعلا به نبيه عليه الصلاة والسلام، وما خص الله جل وعلا به بعض العارفين من أهل الدراية في أبواب النبوة، كمسألة الرؤيا، أو الأخبار التي يتناقلها الناس عن أنبياء الله جل وعلا، وهذا ضرب من ضروب معرفة الغيب التي أذن الله سبحانه وتعالى به.

والغيب من جهة الأصل لا يعلمه إلا الله، وأعظم هذا الغيب ما يرتبط فيه الناس بلقاء الله جل وعلا، فهو كالباب الذي يدخل فيه الناس إلى لقاء الله جل وعلا، وذلك هو قيام الساعة، فعلم الساعة هو من خصوصية الله جل وعلا، فمن نازع الله جل وعلا في هذا الباب أو في شيء من فروعه، وادعى علم ذلك فقد أشرك مع الله عز وجل غيره، وكفر حينئذٍ بنبوة محمد ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:34].

وهذه الخصائص قد سماها لله جل وعلا مفاتح الغيب، وقد جاءت عن رسول الله ﷺ كما في البخاري من حديث مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: (مفاتح الغيب خمسة، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما يكون في الغد إلا الله، ولا يعلم أحد متى ينزل الغيث والمطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله)، فهذه مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله جل وعلا، فمن علم تمام الشروط علم زمن المشروط، وهو قيام الساعة.

الحكمة من بيان أشراط الساعة

وما يذكره العلماء من النصوص في الأسانيد الثابتة عن رسول الله ﷺ من علامات الساعة وأماراتها إنما هو شيء يسير من أشراط الساعة، وذلك أن الإنسان إذا توفرت لديه جميع الشروط التي بتحققها يتحقق المشروط يُعلم حينئذٍ أن الإنسان قد توفر فيه العلم اليقين في معرفة وقوع قيام الساعة.

وقد خصت هذه الأمة بمعرفة بعض أشراط الساعة، وحجب عنها شيء كثير لخصوصية هذا الأمر بالنسبة لله سبحانه وتعالى مما لا يشركه معه غيره جل وعلا.

وأشراط الساعة قد بينها رسول الله ﷺ لحكمة بينة ظاهرة، وهذه الحكم هي من جهة الأصل قد دعا إليها رسول الله ﷺ.

غرس الإيمان في نفوس الناس

ومن أظهر هذه الحكم وأبينها: غرس الإيمان في نفوس كثير من الناس، وذلك أن الناس حينما يجهلون إيمان شخص من الأشخاص، أو صدقه من كذبه، ولا يعرف، ولا يقوم صديقه بسبر حاله، وسبر حال المتحدث أن يُنظر إلى ما يخبر به، فإن كان صادقاً في جملة من الأحوال فإن القرائن تتأكد في نفس الإنسان أنه يصدق فيما يليه؛ ويسمى عند المحدثين هذا بالسبر، أي: أنه يسبر حديث الراوي ويقرن في واقع حاله، أو يقارن بحديث بلده، حتى يعرف حاله من الثقة والضعف.

وهذا منغرس في الطبائع البشرية أن الإنسان إذا أراد أن يعرف صدق شخص من كذبه، فإنه ينظر إلى حاله، فإن خالطه مدة طويلة وعرف أنه أخبر بأشياء، ثم وجد بالنظر في حاله أنه قد صدق، فقال: زارني فلان، أو ذهب فلان، وأتى فلان، أو رأيت فلاناً، ونحو ذلك، وفي كل هذ الأحوال كان يصدق في الإخبار بها، فإنه يُعرف أن هذا الرجل صادق، وأنه دقيق في النقل، وكذلك يعرف خفيف الضبط والكذاب بسبر الحال.

ورسول الله ﷺ أراد الإيمان أن ينغرس في قلوب الناس من جهتين:

الجهة الأولى: من جهة الأصل بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، والتصديق بما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أن رسول الله ﷺ قد أمر الناس بالتعبد والتدين لله جل وعلا بجملة من أنواع العبادات، من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتجنب الشرك بأنواعه، وطاعة الله سبحانه وتعالى بأنواع الطاعات التي أخبر بها رسول الله ﷺ، ومن هذه الطاعات: أركان الإسلام الخمسة بعد توحيد الله جل وعلا، وقد تقدم الإشارة إلى التوحيد، والإشارة إلى جملة من أنواع العبادات التي هي من فروع أركان الإسلام، كنوافل العبادات من الصلاة، ونوافل العبادات من الصيام، ونوافل الزكاة من الصدقة والنفقة على الأزواج، وكذلك الهدية التي تدخل في باب العبادة إن نوى الإنسان ذلك، وكذلك نوافل الحج، والعمرة على من قال بعدم وجوبها، وغير ذلك، والإكثار مما هو من فروع هذه العبادات من جهة التجزؤ، كذكر الله سبحانه وتعالى، وأن يكون لسان الإنسان رطباً من ذكر الله جل وعلا.

الجهة الثانية: أن يزداد يقين الإنسان بالإيمان بقيام الساعة، وأن الله جل وعلا يبعث من في القبور، وأن الإنسان مقبل على الله جل وعلا، شاء من شاء، وأبى من أبى، وأن هذا الإنسان لا خيار له، وأنه أمر أراده الله جل وعلا لا راد لأمره، والإنسان حينئذٍ إذا آمن بهذا الشيء يزيده ذلك بالإكثار من العمل، وهذا ظاهر بين، فلا يستعجل قيام الساعة، وإنما يستعجل العمل.

وقد فرق النبي ﷺ وكذلك الوحي بين الاستعجالين: الاستعجال الأول: بين الاستعجال والمبادرة بالعمل، كما قال رسول لله صلى لله وعليه وسلم: (بادروا بالأعمال ستاً)، وعدم الاستعجال ونفيه باستعجال قيام الساعة ((أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)) وهو قيام الساعة، ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:1] قدوم هذه الساعة، ولكن بادروا بالأعمال التي تكسبكم عند الله جل وعلا علو منزلة وثواب.

إذاً من حكم معرفة قيام الساعة إذا ثبتت أنها تزرع إيماناً في قلب الإنسان، ويثبت معها المبادرة بالعمل والإحسان والإكثار من

الطاعة قبل أن تأتي إلى الإنسان قيامته.

ومن نظر إلى نصوص الكتاب والسنة وجد أن الله جل وعلا يطلق الساعة ويريد بها القيامة، وهذا ظاهر، وقد ذكرها الله جل وعلا في مواضع عديدة، وصور متنوعة، ويريد بذلك يوم القيامة، وكذلك جاءت في كلام رسول الله ﷺ في مواضع متعددة، وهي على الأكثر المراد بها قيام الساعة، وتأتي في غير ذلك.

وهي في كلام رسول الله صلى الله وعليه وسلم ليست كما هي على الإطلاق في كلام الله جل وعلا، ففي كلام الله لا تأتي إلا بمعنى القيامة، وأما في كلام رسول الله ﷺ فتأتي على معنيين:

المعنى الأول: معنى قيام الساعة، وهو المراد في كلام الله جل وعلا.

المعنى الثاني: يراد بها الساعة الزمنية، والزمن في اليوم والليلة يقسمه العرب في الجاهلية والإسلام على أربع وعشرين ساعة، فالنهار اثنتا عشرة ساعة، والليل كذلك، ويزيد وينقص بحسب فصول السنة، وله معنى ثاني في لغة العرب وهي: الفترة الزمنية من النهار، ومن هذا المعنى اشتق لقيام الساعة، وكذلك وصف الساعة يوم القيامة بهذا الوصف أنها تأتي سرعة، ووقتاً زمنياً يسيراً، فلا يشعر به الإنسان، فيكون عامل الفجأة في ذلك أظهر من غيره.

إشباع ما في نفوس البشرية من حب الاطلاع على الغيب

ومن الحكم التي تظهر فيها أشراط الساعة، وتكثر النصوص فيها، وبيان علاماتها وأماراتها: إشباع ما في نفوس البشرية من حب الاطلاع على الغيب، ومكامن الأسرار، ومعرفة غائب الكون، وقطع حبال التعالم على المتعالمين، وأظهر ذلك في أحوال المنجمين والكهنة الذين يدعون علم الغيب.

فإذا كثرت النصوص في بيان قيام الساعة ولم تكن ثمة أمارات فإنه يكثر حينئذٍ الدجل والرجم بالغيب، وادعاء أن علامات الساعة كذا وكذا، ونحو ذلك، فيصحح حينئذٍ الضعيف، وتجعل الرؤى أخباراً تروى عن رسول الله ﷺ، ويجعل للأقوال المنثورة من أخبار بني إسرائيل أسانيد تجعل لرسول الله ﷺ، فقطعت هذه الحجج بعلامات ونصوص بينة عن رسول الله ﷺ، وكذلك في كلام الله جل وعلا مما يأتي بيانه بإذن الله.

وهذا الراجم بالغيب نظر إلى الفطرة البشرية التي تتطلع إلى معرفة الغيب، ومعرفة الأسرار المغيبة عن الإنسان، وكثيراً ما يميل ضعفاء النفوس إلى دجلة معرفة المستقبل؛ ويكثر عند الجهلة من الناس ضرب من ضروب السحر مما يسمى بمعرفة قراءة الكف، والنظر في الأبراج، فمن ولد في برج كذا وكذا فإن حاله يكون على كذا وكذا، وينساق في هذا كثير من العوام.

وفي بيان أشراط الساعة قطع لمظنة التصديق لمن يرجم بالغيب، وذلك أن الدلائل على صدق الإنسان وكذبه أظهرها الواقع، فإذا كذب الواقع خبر المخبر فإن هذا أظهر الدلائل على كذبه، والواقع بالنسبة للغيب مجهول، وذلك أن الساعة أمرها عند الله سبحانه وتعالى، فإذا أخبر مخبر أن الساعة تقع في الزمن الفلاني، أو أن من علاماتها كذا، فالواقع يصعب أن يكذب هذا الخبر،

وذلك أن الواقع لا يمكن حده، فإنه يؤجل إلى عام بعد عام.

ولهذا تناقض كثير – حتى ممن ينتسب إلى العلم – في تحديد عمر أمة الإسلام، فمنهم من قال: إن عمر أمة الإسلام لا يزيد عن ألف سنة، ومنهم من قال: لا يزيد عن ألفي سنة، وقد صنف السيوطي عليه رحمة الله في ذلك كتاباً سماه "الكشف عن زيادة أمة الإسلام عن الألف" يعني: ألف سنة، وحد ذلك بأنها لا تزيد عن ألف وخمسمائة، ولكنها تزيد عن الألف، وهذا نوع من الاجتهاد، وفيه جناية أيضاً، وضرب من الظنون، وقد يتعلق بهذا بعض أهل الخير، وذلك أن تصديق الواقع لا يمكن، والسنوات تنتظر، وقيام الساعة أمره مجهول، فتصديق هذا عند أهل الظنة وضعفاء النفوس الذين ليس لديهم يقين هذا قد يقع.

وربما يقع حتى من عند أهل الإيمان في بعض من أطلقت علاماتهم لقيام الساعة، كظهور الدجال ، والنار التي تحشر الناس إلى المحشر، أو النار التي تخرج من الحجاز، فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى، وهي بلدة من بلاد الشام، بجوار دمشق، وهذه العلامات قد يجتهد فيها كثير من الناس إذا لم يكن لديهم نص بين من كلام الله عز وجل.

ونحن نجد أن النصوص البينة عن رسول الله ﷺ كلما كانت ظاهرة في تحديد الزمن وقوعاً أحجم كثير من الناس عن إلحاق الدعوى الكذابة بها، كمسألة نزول المسيح عيسى ابن مريم، وخروج الدابة.

ومن نظر إلى كثير من التخرصات والرجم بالغيب في أشراط الساعة نجد أن من أقل التخرصات مسألة الدابة، وذلك أن المحاكاة فيها والتشبه بها قريب من الاستحالة، أما ما يمكن التشبه فيه كمسألة المهدي، ومسألة النار، ومسألة الخسوف، ونحو ذلك، فيمكن لكثير من الناس أن يدعي هذه الدعاوى، كخروج من يشابه الدجال في بعض العصور، حتى إن هذا ربما يأتي على بعض أهل العلم.

وهذا يدلنا على مسألة مهمة أنه ينبغي لأهل الجهل، أو عامة الناس، أو حتى أهل العلم أن ينظروا في كلام العلماء العارفين الراسخين في العلم الذين جمعوا بين العلم والإيمان، الإيمان والعبادة، والعلم والرسوخ، رسوخ القدم فيه حتى يكونوا على بينة من أمرهم فيحلوا هذه الأمور.

وقد يكون في زمن من الأزمنة تظهر علامة من علامات الساعة فتحتف القرائن فيها، ولكن قرائن الحال الزمنية الأخرى لا تؤيد أن هذه علامة من علامات الساعة، كما حدث في مسألة المسيح الدجال في أواخر عصر أصحاب رسول الله ﷺ، فقد روى الحاكم في المستدرك من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن أبي الطفيل عليه رضوان الله تعالى قال: (كنا بالكوفة، فنادى مناد أنه قد خرج الدجال ، قال: فأتيت إلى حذيفة بن أسيد عليه رضوان الله تعالى، فقلت له: قد خرج الدجال ، فقال: اجلس. قال: فكنت عنده، قال: فخرج ودخل علي العريف قال: قد خرج الدجال ، وأخذ أهل الكوفة به ضرباً. فقال: اجلس، قال: ثم نادى منادٍ قال: إنه ليس الدجال ، إنما هي كذبة صباغ، فقال: قلت لحذيفة بن أسيد عليه رضوان الله تعالى: ما أجلستنا إلا لأمر، قال: إني محدثك بأمر، إن الدجال لا يخرج في زمن كهذا، ولو خرج في زماننا لحذفه

الصبيان بالخذف، ولكنه يخرج في زمن بغض من الناس، وقلة دين، فيهرجوا ويمرجوا فيه).

وبه يُعلم أنه لو ظهرت أوصاف الدجال الظاهرة، ولم تحتف قرائن الحال الأخرى التي لا تقع فيه بذاته، فحينئذٍ يعلم الراسخون من العلم أن هذا ليس الدجال، وإنما هو شيء من علاماته ولم تقترن به علامات أخرى تدل عليه، وإنما يكون هذا مع وجود جهل من الناس، وقد روى هذا الخبر عبد الرزاق في مصنفه من حديث معمرعن قتادة مرسلاً، وهو الصواب، والله أعلم.

حرص النبي ﷺ على أمته

ومن فوائد بيان معرفة أشراط الساعة للناس، ولأجلها وردت النصوص المتضافرة في كلام رسول الله ﷺ في بيان الأشراط: أن يُعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام كما أنه حريص على عاجل أمر الأمة فهو حريص بآجلها؛ ولهذا حرص النبي عليه الصلاة والسلام على عاجل الأمة وأسلافهم ببيان المعجزات حتى يدخلوا في الإيمان، وحرص على آجل الأمة ببيان الدلائل المتنوعة على أشراط الساعة بحسب القرون؛ ولا يكاد يوجد قرن من القرون إلا ويظهر فيه علامة من علامات الساعة.

وعلامات الساعة على الصحيح الواردة عن رسول الله ﷺ تزيد عن مائة علامة، قد يأتي سرد جلها، وبيان الصحيح من الضعيف فيها عن رسول الله ﷺ، وبعضها ما هو في حكم الموقوف، وله حكم المرفوع عن رسول الله ﷺ، ويأتي بيان ذلك وتفصيله بأسانيده وتعليله بإذن الله عز وجل.

التسمية بأشراط الساعة

سميت أشراط الساعة أشراطاً لأنها علامات على قيام الساعة، وهي على الأغلب إن كانت على ذلك، وقد يسمى من أشراط الساعة ما لم يكن علامة عليها، وإنما هو داخل في أثنائها، وذلك أن من علامات الساعة انكدار النجوم وسقوطها أثناء قيام الساعة، والساعة حينئذٍ قد قامت، وعليه يعلم أن علامات الساعة منها ما هو سابق لها، ومنها ما هو في أثنائها، فالعلامة يذكرها على أنها ما يسبق الساعة، ويكون تمهيداً لقيامها، ومنها ما يكون هو داخلاً فيها ومتغلغلاً فيها، وذلك أن أكثر أشراط الساعة هو سابق لها، سواء كان من الكبرى أو من الصغرى.

والأشراط المراد بها العلامة؛ ولهذا قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد:18]، والمراد بذلك علاماتها، كما جاء تفسير ذلك عن عبد الله بن عباس وقد رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، فقال: حدثني محمد بن سعد ، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي عن أبيه عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى، قال في قول الله جل وعلا: ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد:18] يعني: علاماتها.

والساعة من جهة الأصل قريبة، وبأشراطها يُعرف دنوها، وقد وصفها الله جل وعلا من جهة الأصل بالقرب؛ فقال جل وعلا: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر:1]، وقال: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ [النجم:57]، وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل:1]، وهذا دليل على أن قيام الساعة من جهة الأصل مقترب؛ وقد قال رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين) كما

في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس بن مالك ، وحديث سهل بن سعد ، وجاء أيضاً من حديث جابر بن عبد الله ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ.

وإذا كان رسول الله ﷺ هو أول علامات الساعة من جهة مبعثه ووفاته عُلم أن الساعة من جهة الأصل هي قريبة، ولكن القرب هذا يقترب بحسب العلامة، وهذا المراد به إيصال هذا الأمر لكل زمن تظهر فيه علامة؛ ولهذا كانت علامات الساعة متفرقة بحسب الأزمنة، وبحسب الأمكنة، حتى يتوزع غرس الإيمان في قلوب الناس.

مواضع أشراط الساعة

قد يكون في بلد من البلدان أشراط الساعة تظهر فيها أكثر من غيرها، وأظهر علامات الساعة وأكثرها ظهوراً في بلاد الشام، والشام شامل لبلاد الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين، وشيء من تركيا ، وبعض من شمال العراق أيضاً هو داخل في بلاد الشام، وشيء أيضاً من شمال جزيرة العرب، وهذا هو أكثر مواضع أشراط الساعة، ويليها بعد ذلك بلاد الحجاز، وهي مكة والمدينة.

وإنما كانت الشام أكثر البلدان اكتنافاً لأشراط الساعة؛ لأن الله جل وعلا قد خص الحجاز بمزية دفع كثير من الشرور عنها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة – وقد جاء في رواية: إلى الحجاز – كما تأرز الحية إلى جحرها)، وإن كانت الحجاز أيضاً مخصوصة ببعض علامات الساعة، كهدم الكعبة والفتنة التي تقع في المدينة وغير ذلك مما يأتي بيانه مما لا يكون في غيرها من البلدان.

ومن علامات الساعة مما يعم الأرض كلها، كانتشار الفتنة، وانتشار الإسلام في الناس، وانتشار الضلال، ويأتي تمييز ذلك مما جاء في النصوص في كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ من انتشار الإسلام في الأرض، وفي بعض النصوص: انتشار الجهل، وبعض الناس يخلط بين هذين الأمرين، والصحيح أن هذا لحقبة، وهذا لحقبة، فانتشار العلم والإيمان والإسلام في الأرض هو سابق لانتشار الكفر والجهل، وانتشار الكفر والجهل يكون في آخر الزمان وقبيل قيام الساعة، وتقوم الساعة على شرار الخلق، وهذا يكون حينئذٍ مصاحباً لرفع القرآن، وحجب الإيمان من هذه الأرض، وقبض العلماء، ويلي ذلك قبض أهل الإيمان بالريح التي يبعثها الله عز وجل، فتأخذ أهل الإيمان قاطبة، فلا يبقى إلا شرار الخلق فتقوم الساعة عليهم.

المرجع في معرفة أشراط الساعة

من المسائل المهمات قبل الولوج في أشراط الساعة أن يُعلم أن مرد أشراط الساعة إلى الوحي، والوحي هو الكتاب والسنة، وما في حكم الكتاب والسنة، وهذا محل خلاف عند العلماء، كمسألة ما يأتي من بعض الأخبار الأمم السابقة، فهو من جهة الأصل لا يصدق ولا يكذب، وكذلك ما جاء من أخبار الأمم السابقة في كلام رسول الله ﷺ، ولم يُنفَ، هل هو شرع لنا أم ليس بشرع لنا؟ هذا محل خلاف، وهذا يأتي الإشارة إليه بإذن الله.

وكذلك بالنسبة للموقوفات ومما لا يقال من قبل الرأي من الإخبار بالمغيبات، فإن هذا على تفصيل، وذلك أنه يُنظر حال ذلك

المخبر، فإذا كان من أصحاب رسول الله ﷺ، واحتفت القرائن بعدم تحديثه عن غير النبي عليه الصلاة والسلام، كمن يحدث عن رسول الله ﷺ بالأسرار، وخصه النبي عليه الصلاة والسلام بخصيصة ليست لغيره من الصحابة كحذيفة بن اليمان ، فلديه من الأخبار مما ليس لغيره حتى ممن هو فوقه من أصحاب رسول الله ﷺ كالخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم، وقد خصه النبي عليه الصلاة والسلام بمعرفة المنافقين بأعيانهم، ومعرفة حوادث الزمان، وكذلك أبو هريرة عليه رضوان الله تعالى، فهؤلاء وأمثالهم إذا حدثوا بشيء من أشراط الساعة فإن الغلبة أنه من النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يكون من قبيل الإسرائيليات.

وإذا احتفت قرينة من القرائن أن هذا المحدث عن رسول الله ﷺ يحدث بالإسرائيليات، ويأخذ عنهم فإن الأمر في ذلك متردد، فإذا لم يحتف بقرينة ولم يعرف الخبر عن غيره فإنه يرجع حكمه في ذلك إما إلى الموقوف، أو إلى أنه أُخذ من بني إسرائيل، فلا يصدق ولا يكذب، كما قال رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأمثال هؤلاء جملة من أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن عمرو بن العاص وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ، والوارد في ذلك جملة من الأخبار، وكثير منها يأتي عن حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى.

إحصاء أشراط الساعة

ومن المسائل المهمة في هذا الباب: مسألة حصر وإحصاء أشراط الساعة، فحصر أشراط الساعة الواردة في كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ يحتاج إلى سبر ودراية.

وكثير ممن يصنف في هذه المصنفات من المتأخرين هم عالة بالنظر إلى المتقدمين، بل إنه لا يكاد يوجد من المتأخرين من صنف كتاباً على الاستقلال بالبحث والنظر إلا نزر يسير، وإنما كثير منهم يحاكي الآخر، فيجمع المتفرقات، ويؤلف بين الأوزاع من الأحاديث والمسائل التي جمعها العلماء قبل ذلك، ثم يجعلون منها نصوصاً، وثمة نصوص كثيرة عن بعض السلف وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أعلم من أشار إليها في أشراط الساعة حتى من المعاصرين، مما يدل على أن هذه النصوص الواردة عن رسول الله ﷺ أو عن جملة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن عامل التقليد في التأليف ظاهر، وإلا فهي ظاهرة من جهة النص، وبينة من جهة المعنى لمن وقف على هذه النصوص، وكلها من أشراط الساعة الداخلة في أبواب الصغرى، أو أشراط الساعة الصغائر.

تصنيف العلماء في أشراط الساعة

وقد صنف العلماء عليهم رحمة الله تعالى واعتنوا بهذا الباب عناية بالغة، وقد جعلوا ذلك فيما ورد عن رسول الله ﷺ في أمور المغيبات وأحكام الديانة، بل لا يكاد يوجد مصنف من المصنفات في أمور السنن والمسانيد إلا ويتضمن جملة من الأخبار عن رسول الله ﷺ في هذا الباب.

وقد صنف البخاري عليه رحمة الله تعالى كتابه الصحيح، وأورد فيه كتاب الفتن، وأورد فيه جملة من أحاديث أشراط الساعة، وأورد الترمذي باباً أسماه: باب ما جاء في أشراط الساعة، وصنف أبو داود عليه رحمة الله تعالى كتابه السنن، وأورد فيه كتاب

الملاحم والفتن، وكتاب المهدي، وأورد جملة من أخبار أشراط الساعة، وكذلك غيرهم ممن صنف في هذا الباب.

ومنهم من صنف على الانفراد، وقد صنف عشرات الأئمة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وممن صنف في ذلك من المتقدمين عبد الرحمن بن مهدي ، و أبو بكر بن أبي شيبة ، و عثمان بن أبي شيبة ، و أبو عمرو الداني ، وله كتابه المشهور في هذا "السنن الواردة في الفتن وغوائلها، والساعة وأشراطها"، وهو مطبوع، وثمة مصنفات في هذا لجملة من الأئمة كحنبل بن إسحاق ، و عبد الغني المقدسي ، وصنف في هذا من أئمة السير والسنة والتاريخ جملة من الأئمة كالحافظ ابن كثير عليه رحمة الله، وتبعه على ذلك وأخذ عنه جل وأكثر المتأخرين.

الأمور التي ينبغي الانتباه لها عند النظر في مصنفات أشراط الساعة

وينبغي لطالب العلم والمعتني في هذا الباب أن يحذر عند النظر في هذه المصنفات من أمور متعددة:

الحذر من الأحاديث الضعيفة والمنكرة

الأمر الأول: الحذر من الأحاديث الواهية والضعيفة والمنكرة التي لا ترقى إلى درجة بالمرويات في هذا الباب، وهي قد شحنت فيها كثير من المصنفات المصنفة في هذا الباب، خاصة في مصنفات كثير من المتأخرين، وأبواب النقد لأشراط الساعة وفضائل الأعمال.

ومما يدخل في هذا الباب أن العلماء عليهم رحمة الله يخففون في النقد لأمثال هذه الأبواب إذا لم تكن في الأحكام، وقد جاء التخفيف في ذلك والتيسير عن جماعة من العلماء، فقد جاء عن عبد الرحمن بن مهدي و يحيى بن سعيد الأنصاري كما أسنده عنه البيهقي عليه رحمة الله في شعب الإيمان ودلائل النبوة، وكذلك الخطيب في كتابه الجامع.

وجاء عن الإمام أحمد عليه رحمة الله أنه قال: (ثلاثة ليس لها إسناد: الملاحم، والتاريخ، والتفسير). ومراده بذلك أن الأئمة من أهل النقد والحفظ لم يعتنوا بالمرويات في أبواب التفسير والسير والمغازي والملاحم وأشراط الساعة وفضائل الأعمال، وغيرها مما يلحق فيها حكماً، يعني: لم يعتنوا بها كعنايتهم بالأحكام؛ لأنها لا تدخل في صلب الدين، باعتبار أنه لا يلزم من ذلك إحداث عبادة من صلاة وصيام وصدقة، ونحو ذلك، وإنما هي تزيد من الإيمان وتنقصه، ويحتاج إليها الناس في زيادة الإيمان ونقصانه، فتدخل ضمناً في أبواب فضائل الأعمال؛ لأنها من جهة المحصلة داخلة في هذا الباب.

ولا يجوز أن يحتج على الإطلاق بأي حديث موضوع أو متروك أو منكر، أو فيه كذاب، أو ضعيف جداً، أو تركه الأئمة، ولو كان كذاباً ولو مرة واحدة فإنه لا يحتج به في أي باب من أبواب العلم، ولو كان العلماء ممن يتساهلون في هذا الباب؛ ولهذا قد قال يحيى بن سعيد : (كنا إذا روينا في التفسير والسير والمغازي تساهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال)، وذلك أن هذا يرجع فيه إلى الاحتياط، وهو داخل في صلب الدين،

ويلزم منه إحداث العبادة.

وما يكون فيه من أشراط الساعة ويلزم منه إحداث عبادة أو اقتداء واتباع، أو يلزم منه قتل وسفك دماء ونحو ذلك من إباحة دم الأصل فيه العصمة، فإنه حينئذٍ لا يؤخذ فيه إلا بالأحاديث الصحيحة؛ ولهذا لا يقال بالإطلاق أن أحاديث التاريخ والسير والمغازي أنه يتساهل فيها، فإذا كانت من أحاديث السير ويلزم منها عبادة أو تحليل وتحريم فإنه يحتاط لذلك، مثلاً مسألة المسيح الدجال وما يتبعه من فتنة وقد ساق الناس خلفه، وغير ذلك، فيحتاط في أنه يشدد فيه ولا نشدد في غيره، كمسألة نزول المسيح، والبلد التي ينزل فيها، ونحو ذلك؛ لأن هذا يلزم منه كثير من الأحكام التي ينبغي أن يحتاط فيها ما لا يحتاط في غيرها.

محاكاة المصنفين لبعضهم في النقل والنظر

ومن الأمور التي ينبغي أن يحتاط فيها عند النظر في كتب أشراط الساعة وأضرابها: أن يعلم أن ما يرد في هذه الكتب يكثر فيه المحاكاة والنقد، وكثير من النقلة في هذه الأبواب يستأنسون ويعتضدون بأن هذا القول قد قال به فلان وفلان وفلان، وعند السبر والنظر نجد أن هؤلاء قد أخذوا من بعض، وبعضهم أخذ من الآخر، وإذا أراد المرجح أن يرجح فيقول أنه قد قال بصواب ذلك وصححه جماعة، وكل قد تأثر بالآخر، فيكون لدى الإنسان باب الترجيح ظاهر من جهة العدد، ولو تأمل من جهة سبر هذه المصنفات والتأمل فيها لوجد أن كثيراً منهم يحاكي الآخر.

كثرة التأويلات البعيدة لنصوص الوحي المتعلقة بأشراط الساعة وإنزالها

ومن الأمور التي ينبغي للناظر في هذه الكتب أن يحتاط فيها: كثرة التأويلات البعيدة لنصوص الوحي في تأويل أشراط الساعة وإنزالها، وذلك أن إنزال أشراط الساعة على زمن من الأزمنة، أو على حال من الأحوال يحتاج الاحتياط، وخاصة ما يلزم من ذلك العمل، فإذا كان يلزم من ذلك العمل فينبغي في ذلك أن يحتاط الإنسان قدر إمكانه.

ولا غضاضة على الإنسان أن يجتهد في إنزال نص عام على حالة من الأحوال إذا كان لا يلزم من ذلك عمل، كأن يكون إنزال هذا الأمر هو تحصيل حاصل، أو زيادة يقين، مع ورود اليقين في القلب، كما فعل جملة من أصحاب رسول الله ﷺ في إلحاق الكذاب بالمختار ، والمبير –وهو الذي يكثر القتل والسفك بالناس– بالحجاج ، وهم يعلمون أن الحجاج كان ظالماً، وأن المختار كان كذاباً، ولكن لما جاء عن رسول الله ﷺ كما روى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن الزبير عن أسماء عليها رضوان الله تعالى قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكون في ثقيف كذاب ومبير. قالت عليها رضوان الله تعالى للحجاج : أما الكذاب فقد رأيناه – تريد المختار –، وأما المبير فهو أنت)، فانصرف عنها الحجاجوتركها، وحدث ما حدث من الفتنة المعلومة، ومما هو معلوم في كتب السير والمغازي، ولكنها أنزلت ما جاء رسول الله ﷺ في ذلك، ووافقها على هذا المعنى عامة أهل العلم والتاريخ ممن كان في ذلك القرن، بل من جاء بعده على أن الكذاب هو المختار ، وأن المبير هو الحجاج بن يوسف الثقفي .

فإنزال النصوص في أشراط الساعة إذا كان لا يلزم منه عمل فالأمر فيه يسير، وإذا كان يلزم منه عمل فيحتاط في ذلك ويشدد فيه؛ وقد اجتهد بعض أصحاب رسول الله ﷺ في إنزال بعض أشراط الساعة كمسألة الدجال حينما ألحقه عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى مع وجود النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم، ولم يكن هو من أنزل به عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى الأمر كما في الصحيحين وغيرهما.

وكذلك ما جاء في إنزال أهل العلم مسألة النار التي تخرج من المدينة فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى، فقد ذكر غير واحد من العلماء أنها قد حدثت ونزلت، كالنووي عليه رحمة الله، و ابن كثير وغيرهم من المصنفين الذين جزموا بأن هذه هي النار، بل أن منهم من قطع على ذلك.

وكذلك مسألة قتال المغول، وهم الأتراك؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: (تقاتلون الترك)، فقد أنزل جماعة من العلماء الحديث على قتال التتار، وجزم شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله أن المراد بذلك هم المغول والتتار الذين قاتلوهم في ذلك الزمن، وأيده على ذلك من كان في عصره، بل من جاء بعده، وذلك أن هؤلاء ضلال، واقتحموا بلاد المسلمين، فاحتاجوا إلى المقاتلة سواء وجد النصر أو لم يوجد، وإذا وجد النصر عضد الأمر، فكان كزيادة اليقين، أما إذا كان فيه إنشاء حكم جديد فإنه يحتاط في ذلك ما لا يحتاط في غيره، وهذا يتعلق بكثير من المسائل كمسألة الدجال، ومسألة نزول المسيح عيسى ابن مريم، ومسألة المهدي، ونحو ذلك.

وقد تقدم أن أشراط الساعة إنما جاءت النصوص فيها في كلام رسول الله ﷺ، وهي الأكثر والأبين، وجاءت في كلام الله عز وجل على وجه الإجمال، جاءت لغرس الإيمان، وليس لاستعجال الأحداث؛ ولهذا كان أهل السنة في أشراط الساعة تزيدهم إيماناً، وتقويهم من جهة العمل، بخلاف أهل البدع فإنهم لا يجاهدون، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يقومون بأمر الإصلاح، بل ينتظرون خروج المهدي.

والله عز وجل قد بين أن أمر الله عز وجل آتٍ فلا تستعجلوه يعني بالانتظار والترقب، بل استعجلوه بالعمل، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (بادروا بالأعمال ستاً)، وفي رواية: (سبعاً)، وأمر الله عز وجل بالمسارعة بالخيرات في قوله جل وعلا: ﴿ سَابِقُوا ﴾ [الحديد:21]، وقال: ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ [آل عمران:133]، فالمسارعة بالعمل قولاً وفعلاً واعتقاداً واجب على الإطلاق في كل زمن وفي كل عصر، فأشراط الساعة تزيد من إيمان الإنسان، وتقوي من عمله، وتزيد من ثباته عند الفتن والمدلهمات.

الإجمال والتداخل في أشراط الساعة

ومن الأمور التي ينبغي أن ينتبه فيها الناظر في كتب أشراط الساعة: أن كثيراً من أشراط الساعة تأتي على سبيل الإجمال، وهي من جهة الأصل متداخلة، فتأتي على سبيل الإجمال في نص معين، كمسألة كثرة الفتن في آخر الزمان، وتأتي في بعض النصوص متفرقة في بيان الفتن التي تحدث، ويصنف فيها من يصنف في هذا الباب، ويفرق بين ظهور الفتن والأفراد المتعددة، ويريد بذلك

زيادة في أشراط الساعة.

ومعلوم أن كثيراً مما يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة التي تدخل في أبواب كثرة الفتن في آخر الزمان، كمسألة كثرة الجهل، فالجهل لازم لقبض العلم، وانتشار العلم لازم لانحسار الجهل، فهذا لازم لهذا، وهذا لازم لهذا، فيؤخذ من هذا شرط من أشراط الساعة، ويؤخذ من الآخر شرط آخر، ويعلم بنفيه هذا حصول ذاك، وبحصول ذاك نفي ذاك، ولا يغتر بتزييد كثير ممن يصنف في هذا الباب في أشراط الساعة، فإنه يأتي ببيان المجمل، وكذلك ما يدخل في هذا الباب.

طرق استنباط أشراط الساعة من الكتاب والسنة

من المسائل المهمة التي ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن الناظر في أشراط الساعة: أن الاستنباط في أشراط الساعة عند كثير ممن يصنف في ذلك جلهم يلتزمون تقييد أشراط الساعة بنصوص مقيدة من كلام الله عز وجل أو كلام رسول الله ﷺ، وذلك كقول النبي عليه الصلاة والسلام: لا تقوم الساعة حتى كذا، أو بين يدي الساعة كذا، أو أعدد كذا بين يدي الساعة، فيترقب كلمة القيامة وكلمة الساعة، ويجعل ذلك شرطاً من أشراط الساعة، وهذا فيما أرى فيه نظر، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة، فكل ما يأتي عن النبي عليه الصلاة والسلام من الأخبار الغيبية المستقبلية أنه يقيناً سيحدث هو من أشراط الساعة إذا دل عليه الدليل، كمسألة زوال عصر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا لا أعلم من أشار إليه ممن صنف في هذا الباب إلا على سبيل الإجمال، كمسألة ذهاب الصالحين، يذهب الصالحون الأول فالأول، والصواب في ذلك أن ذهاب جيل الصحابة، وهو القرن الأول، هو من علامات الساعة، كما أن موت النبي عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة وأشراطها.

وأشراط الساعة كيف تستنبط من السنة، ومن كلام الله عز وجل؟

تستنبط بأمور عدة:

الأمر الأول: أن يشار إلى أن هذا بين يدي الساعة أو يكون سابقاً لها، كما يأتي عن رسول الله ﷺ كما في حديث عوف بن مالك في الصحيح: (أعدد ستاً بين يدي الساعة)، أو لا تقوم الساعة حتى كذا.

الأمر الثاني: من العلامات أيضاً فيما يشير إليه النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقع كذا وكذا، ثم تقوم الساعة.

الأمر الثالث: من القرائن التي يستنبط فيها: أن يقرن وقوع أمر في سياق شرط من أشراط الساعة، ولو كان هذا لم يشر إليه في ذات الخبر، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أشار في خبر أن بعثته من أشراط الساعة، وموته من أشراط الساعة.

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن مبعثه من أشراط الساعة في جملة من الأحاديث، كما رواه البخاري من حديث الفضيل عن أبي حازم عن سهل بن سعد عليه رضوان الله تعالى قال: قال رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين.

وأشار إلى السبابة والوسطى)، وقد جاء هذا عند الإمام مسلم من حديث شعبة عن قتادةعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، وجاء عن رسول الله ﷺ أيضاً من حديث جابر في الصحيح، وجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من غير هذا الوجه، وفي هذا إشارة إلى أن مبعث النبي عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة.

وجاء أن موته من علامات الساعة أيضاً، كما جاء عن رسول الله ﷺ عند البخاري من حديث بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس)، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (موتي) هذا علامة من علامات الساعة، وجاء في خبر آخر ذكر موت النبي عليه الصلاة والسلام وقرن معه أشياء، وهذه الأشياء إذا نظرنا إلى السياق لا نستطيع أن نستنبط منها أنها من علامات الساعة، لكن لو نظرنا هنا للإشارة إلى الموت أنه من علامات الساعة فيعلم أن الذي يليه هو من علامات الساعة.

وقد روى الإمام مسلم من حديث مجمع عن سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبيه وهو أبو موسى الأشعري عليه رضوان الله تعالى قال: (صلينا مع رسول الله ﷺ صلاة المغرب، فقلنا: نجلس ننتظر رسول الله ﷺ، قال: فذهب رسول الله ﷺ، فرجع إلينا في صلاة العشاء، فقال: ما زلتم مكانكم؟ قال: قلنا: يا رسول الله! ننتظر حتى تأتي. قال: أحسنتم أو أصبتم. فقال: نظر رسول الله ﷺ إلى السماء، وكثيراً ما ينظر إليها، قال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد)، وهذا فيه إشارة إلى أن ذهاب النجوم وكثرة الشهب وسقوطها أن هذا من علامات الساعة.

وقال عليه الصلاة والسلام: (وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون)، وهذا قد ثبت أنه من علامات الساعة فيما تقدم في حديث عوف بن مالك ، قال: (قال أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي)، فموت النبي عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة.

ثم قال: (فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)، فقوله: (ما الذي يوعدون؟) يعني: الذي يوعدون وهو قرب قيام الساعة، وبه يُعلم أن ذهاب أصحاب رسول الله ﷺ وانقراض الجيل هذا من علامات الساعة، وهذا يؤخذ بنص آخر وهو حديث عوف بن مالك ، ولو أخذنا هذا الخبر على سبيل الاستقلال ما جعلنا هذا من أشراط الساعة.

وهذا يخالف ما ذكره أكثر الشراح في حديث عائشة عليها رضوان الله تعالى في صحيح الإمام مسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عليها رضوان الله تعالى أنها قالت: (كان الأعراب يأتون إلى رسول الله ﷺ فيسألونه: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: فكان رسول الله ﷺ ينظر إلى أحدث القوم سناً، فيقول عليه الصلاة والسلام: إن بقي هذا لم يدركه الهرم تقوم الساعة)، يعني: أن أصغر صحابي في الحضور هو هذا الصبي، ولن تقوم الساعة في المعتاد حتى يكبر هذا، ويأخذ عمره المعتاد، وفي الحديث: (أعمار أمتي بين الستين والسبعين)، فينقرض هذا الجيل، فإذا انقرض تكون حينئذٍ ظنت قيام الساعة وقربت، وقبل

ذلك لا تقع.

وجل الشراح يقولون: إن مراد النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك هي القيامة المتعلقة بكل واحد منكم وهو الموت، والذي أرى والله أعلم أن المراد بذلك هو ذهاب جيل الصحابة، ويعضده ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عليه رضوان الله تعالى في البخاري في صلاة النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الفجر، حينما انفتل من أصحابه .. إلى آخر الخبر المعروف، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (رأيتكم ليلتكم هذه، فإنه لا يبقى على ظهر مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد)، يشير إلى أصحابه أنهم ينقرضون ثم تقوم الساعة، وذلك أن الساعة لا تقوم وفي الأرض خير، وذلك أن الله عز وجل يبعث الريح، فتأخذ أرواح المؤمنين، ولكن خص النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة بخصيصة وهو أنهم يأخذون موتهم بقبض روح يمتازون عمن تقوم عليه الساعة وهم المؤمنون في آخر الزمن ممن تأخذ أرواحهم الريح، وهذا من القرائن التي يؤخذ منها أشراط الساعة.

الأمر الرابع: مما يؤخذ منه أيضاً أشراط الساعة في النصوص ما يأتي من كلمة: أول الفتن، أو أول الشر، ونحو ذلك، سواء في كلام أصحاب رسول الله ﷺ أو في غيرهم، وهذا يأتي في ألفاظ حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى، ومن ذلك ما رواه الدينوري في كتابه "المجالسة" من حديث حجاج عن زيد بن وهب عن حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى، قال: (أول الفتن مقتل عثمان بن عفان عليه رضوان الله تعالى، والذي نفسي بيده لا يكون في قلب أحد مثقال ذرة من إيمان من حب مقتل عثمان إلا ويتبع المسيح الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به بقبره). وفي هذا إشارة إلى مسألة أول الفتن وربطها بالمسيح الدجال ، وفيه إشارة إلى أن أول الفتن ظهوراً التي أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام وأقواها هي فتنة مقتل عثمان التي كانت كانفراط العقد التي تبعها جملة من الفتن كقتال فئتين من المؤمنين، كما في حديث أبي هريرة وحديث حذيفة ، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى الفتنة التي تقع بين أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: (دعواهما واحدة).

الأمر الخامس: أن كل ما كان إرهاصاً لشرط من أشراط الساعة فهو شرط للساعة أيضاً، وذلك أن أشراط الساعة لها شروط وإرهاصات، فهذا الإرهاص لشرط الساعة هو شرط للساعة أيضاً، ولازم لها، وهو لا يتحقق إلا بوجوده، فما كان إرهاصاً لهذا الشيء فهو من أشراطها.

الأمر السادس: ما يخبر به بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أو يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام وقوعاً من غير تقييد: ليوشكن أن يكون كذا وكذا، أو ليقعن كذا وكذا، فإن هذا فيما يظهر لي أنه من أشراط الساعة أيضاً، وذلك أن أشراط الساعة يحصرها أمور: أولها بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وآخرها اختلف في تقييده في خلاف ضيق يأتي بيانه، على خلاف عند العلماء في أول أشراط الساعة الكبرى، مما يأتي بيانه لاختلاف الروايات في ذلك، وسنبين الراجح من المرجوح بإذن الله عز وجل في موضعه، وإذا علم ذلك علم أن ما يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام مما يحدث هو من أشراط الساعة المتباين هل هو من الكبرى أو من الصغرى، بحسب الحال وبحسب الورود.

تقسيمات أشراط الساعة

ومن الأمور المهمة التي ينبغي أن يشار إليها في هذا الباب قبل الولوج فيه في سياق أشراط الساعة أن العلماء يختلفون في تقسيماتهم لأشراط الساعة لاعتبارات كثيرة، منها:

التقسيم باعتبار الصغر والكبر

من العلماء يقسم أشراط الساعة إلى أشراط كبرى وصغرى، وهذا التقسيم على سبيل الاجتهاد المحض، وذلك أن فروع هذا التقسيم شروط الساعة الكبرى والصغرى هناك ما يتفق عليه ويقطع به أنه عظيم جليل القدر، وهناك ما يتنازع فيه، فيجعل العلماء من الكبرى هو ما نص عليها النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عوفو أبي هريرة و حذيفة ، وكذلك الكبرى هي ما كانت تنفرط كالعقد في آخر الزمان، والصغرى تسبق ذلك.

ولكن يقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى جملة من الصغرى وتكون مع الكبرى ككثرة الفتن وكثرة القتل والهرج، وكثرة الجهل، فيذكرها العلماء في الصغرى وهي داخلة مع الكبرى.

التقسيم باعتبار الوقوع وعدمه

ومنهم من يقسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: أشراط وقعت وانتهت، القسم الثاني: أشراط وقعت وما زالت تقع وتزداد، القسم الثالث: أشراط لم تقع بعد، وهي ما يطلق عليه أقسام أشراط الساعة الكبرى، وهذا التقسيم فيه تداخل بين الأول والثاني، وهي أيضاً تتداخل بين الثاني والثالث، وذلك أن من الثاني ما يدخل في الثالث فيكون وقع ويزيد، ومما يكون وقع وانتهى مما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام كما في مسألة الكذاب والمبير، والنار التي تخرج من بصرى، وفتح بيت المقدس، وموت النبي عليه الصلاة والسلام، ومبعث النبي عليه الصلاة والسلام، وانقضاء عصر أصحاب رسول الله ﷺ، وظهور الفرق من الخوارج، والفتنة التي وقعت بين أصحاب رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام.

ومن القسم الثاني الذي وقع وما زال يزداد، هو تقارب الزمن فيما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، وفشو الجهل وفشو القلم في الناس وكثرة الجهل.

وثمة إشارة لطيفة في قول النبي عليه الصلاة والسلام في بعض المواضع: (ظهور الجهل)، ويأتي في بعض المواضع: (ظهور القلم وفشو القلم)، وهذا فيه إشارة إلى أن وجود القلم والكتب في الناس أنه لا يدل على العلم، وأنه قد يدل على الجهل، وهذا مشاهد في أن الأمية قد انحصرت أو كادت أن تنحصر في الناس، والناس يكتبون ويقرءون، وأن هذا ليس بلازم للعلم؛ لأن العلم الحق هو معرفة العلم النافع، وليس معرفة العلم الضار الذي يضر الإنسان في عاجل أمره من دنياه، وآجله في آخرته، ونحن نشاهد كثيراً من أرباب النظريات ممن يحدثون أحداثاً هي ضرر على البشرية، كالأسلحة الفتاكة، والابتكارات الطبية، والتي بسببها انتشرت الأوبئة والأمراض والأسقام في الناس والتي تظهر صراعاً بين جيل وجيل لم يكن يعرفه الناس قبل ذلك.

كذلك ما ظهر القلم في الناس حينما انتشرت الأفكار السيئة، وغطى ذلك على معرفة الحق من كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهديه، وبه يُعلم أن الإنسان إذا استكثر من ذلك فليس بدليل على معرفته بالعلم الحق الذي يفصل به الإنسان، ويفرق فيه بين الخير وبين الشر.

التقسيم باعتبار تاريخ الوقوع

ومن الاعتبارات التي يقسم فيها العلماء أشراط الساعة: اعتبار الوقوع وتاريخ الوقوع، فتكون أشراط الساعة على نوعين: أشراط تسبق الساعة، وأشراط معها.

فالأشراط التي تسبق قيام الساعة هي ما لم تقع فيه الساعة، ويدخل في هذا جملة من أشراط الساعة الكبرى وجميع الصغرى، أما ما يكون مصاحباً لقيام الساعة فيدخل في هذا ابتداء كخروج الشمس من مغربها، وهذا هي العلامة الأولى لانتهاء وانقضاء التوبة، وبدأ الهرج والمرج، وكذلك سقوط النجوم وانكدارها، وسقوط الشهب واضطراب الكواكب، وفيه إشارة إلى أمر الله عز وجل لاختلال عامل ما يسمى بالجاذبية التي جعلها الله عز وجل عاملاً في اتزان هذه الكواكب في دورانها بانتظام، وهذا يكون مصاحباً لقيام الساعة.

وبه يُعلم أن من العلامات الفارقة بين العلامات المصاحبة لقيام الساعة، والعلامات السابقة لقيام الساعة: قبول التوبة، فما كان تقبل فيه التوبة حال نزول الشرط فإنه قبل قيام الساعة، وما لم تقبل فيه التوبة فهو أثناء قيام الساعة.

وبه يُعلم أيضاً أن كل شرط من أشراط الساعة دل الدليل على أن التوبة مقبولة فيه فهو سابق لطلوع الشمس من مغربها، وكل شرط من أشراط الساعة دل الدليل على عدم قبول التوبة فيه يُعلم أنه بعد طلوع الشمس من مغربها، وعليه يُعلم أن نزول المسيح عيسى ابن مريم وخروج الدجال هو قبل طلوع الشمس من مغربها، وذلك أن الإيمان ينفع حينئذٍ، وأن الاختلاف في الروايات الواردة في أن أول أشراط الساعة هي النار التي تخرج من اليمن، فتحسر الناس إلى الشام وهي أرض المحشر، أن كلمة "أول" يراد بها هي أشراط الساعة الأولى التي تسبق قيام الساعة، وذلك أن هذا النص فيه إشارة إلى هذا التقسيم، بالإشارة إلى الأولية، وهذا يرجح هذا التقسيم من جهة الإجمال، ويدخله جملة من التقسيمات.

وأرجح هذه التقسيمات فيما أرى هو هذا التقسيم: أن أشراط الساعة على قسمين: قسم سابق لقيام الساعة، وقسم في أثناء قيام الساعة، والسابق لقيام الساعة منه صغرى وكبرى، ومن كان بعد قيام الساعة أو مصاحب لها هو كبرى فحسب، ويأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى.

خطورة الكذب في أشراط الساعة

ومن المسائل المهمة في هذا الباب والتي ينبغي معرفتها والعناية بها أيضاً: أن مرد هذا إلى الوحي من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ، وأن الكذب في ذلك هو كذب على الله، وتجرؤ على الوحي من بابين: الباب الأول: هو متضمن للكذب العام في التشريع، ولو لم يلزم منه تعبد. الباب الثاني وهو أخطر: أن هذا أمر غيبي متعلق بعلم الغد، وعلم الغد ليس لأحد إلا لله، ومن

افترى في ذلك فقد نازع الله عز وجل في حقه، فمن كذب في ذلك أو تساهل فيه فقد تساهل في حق من خصوصية الله عز وجل.

والدليل على ذلك ما رواه الإمام مسلم في كتابه الصحيح من حديث داود بن أبي هند عن عامر بن شراحيل الشعبي عن مسروق قال: (كنت متكئاً عند عائشة عليها رضوان الله تعالى، قالت: يا أبا عائشة ! ألا تعلم من أعظم الفرية على الله؟ قلت: من؟ قالت: ثلاثة من قال بها فقد أعظم الفرية على الله، وذكرت منها عائشة عليها رضوان الله تعالى: من قال أنه يعلم ما يكون غداً).

ومن أشراط الساعة التي يحدث بها الناس بلا علم أنه سيحدث كذا، وهو من اختراق خصوصية الله عز وجل، وقد أعظم الفرية على الله، وبه يُعلم أن هذا باب من كبائر الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر، ومع أنه متضمن للكذب على الله ففيه منازعة الله عز وجل في خصوصيته، فإن الله عز وجل هو الذي يعلم ماذا تكسب النفس غداً، فلا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، فمن نازع الله عز وجل في حقه يكون حينئذٍ خطره أعظم من خطر من كذب على رسول الله ﷺ في الوحي.

ومعلوم أن من كذب على رسول الله ﷺ فقد أتى بكبيرة من كبائر الذنوب، بل قد ذهب بعض العلماء وهو قول لإمام الحرمين إلى أنه كافر خارج عن الإسلام، وذلك أن رسول الله ﷺ قال كما الصحيحين وغيرهما من حديث جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، فكيف بمن كذب في حق الله؛ لأن هذا الكذب هو كذب في حق الله محض، وليس في حق النبي عليه الصلاة والسلام فحسب؛ ولأن النبي عليه الصلاة والسلام لا علم لديه في هذا الأمر إلا ما علمه الله جل وعلا؛ ولهذا ينبغي للمرء أن يحترز في هذا الباب ما لا يحترز في غيره.

مبعث النبي عليه الصلاة والسلام

سبق أن ذكرنا تقسيمات أشراط الساعة، وأن تقسيمها على الأرجح فيما أرى على قسمين:

القسم الأول: أشراط الساعة السابقة لقيامها، وهي على نوعين: أشراط كبرى، وأشراط صغرى.

القسم الثاني: أشراط مصاحبة لقيام الساعة وتابعة لها، وأولها خروج الشمس من مغربها.

والنوع الثاني من القسم الأول وهي الأشراط الصغرى فأولها هو مبعث رسول الله ﷺ.

ومبعث النبي عليه الصلاة والسلام هو من أشراط الساعة، فقد جاء في البخاري من حديث الفضيل عن أبي حازمعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين. وأشار بأصبعه السبابة والوسطى)، وقد جاء هذا عند مسلم في الصحيح من حديث شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك بهذا اللفظ وبنحوه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ من حديث جابر عليه رضوان الله تعالى، فمبعث النبي عليه الصلاة والسلام هو من أشراط الساعة.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (كهاتين) يمكن تأويله على معنيين:

المعنى الأول: (كهاتين) أن هذا فيه إشارة إلى أصابع اليد، فإن السبابة لا يليها إلا الوسطى، أي: لا يلي مبعث النبي عليه الصلاة والسلام إلا التي تليها وهي الوسطى، فلا يفصل بينها إصبع أخرى كالخنصر والبنصر أو الإبهام.

المعنى الآخر: أن الفصل بين السبابة والوسطى هو مقدار يسير بينهما، وذلك لا يكون إلا للسبابة مع الوسطى، أي: أن المتبقي من الدنيا بالنسبة لعمرها كحال المتبقي من مبعثي وما من رأس السبابة إلى الإبهام، وهذا يحتمل هذا التفسير.

وقد رجح الأول أكثر الأئمة من المحققين كالحافظ ابن رجب وغيره من الأئمة، وهو الأظهر، والثاني أيضاً محتمل، وقد حمل هذا المعنى الثاني واستنبط عمر الدنيا.

وهل عمر الدنيا يمكن ضبطه أم لا؟ ضبطه بالتحديد محال، وظواهر النصوص وقواطعها من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ظاهر بين، ولكن تحييد جملة منها على سبيل التقريب ممكن.

وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام خبر موضوع أن (الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن الأمة ألف)، وقد بنى على ذلك بعض العلماء أن الأمة لا تتجاوز الألف، وقد صنف في ذلك السيوطي رداً على من قال بهذا القول، ولكنه قد وقع فيما نفر منه، وهو تحديد الأمة بأنها لا تزيد عن ألف وخمسمائة، وأنه يرى أن قيام الساعة على مشارف الألف وخمسمائة، وإن كانت علامات الساعة الصغرى جلها قد ظهر، ولم يبق منها إلا نزر يسير كما يأتي الإشارة إليه، إلا أنه لا ينبغي القطع بذلك.

والجزم الذي يجزم به أن عمر أمة مُحَّد لا يتجاوز ما بين مبعث موسى إلى مبعث مُحَّد ﷺ، أي: لا يزيد عمرها عن عمر بني إسرائيل، والدليل على ذلك ما رواه البخاري و مسلم من حديث مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ، وكذلك رواه أيوب عن نافع عن عبد الله بن عمر ، ورواه ليث عن نافع عن عبد الله بن عمر ، واللفظ لليث ، قال رسول الله ﷺ: (إنما أجلكم فيمن كان قبلكم كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من أول النهار إلى صلاة الظهر على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى صلاة المغرب على قيراطين؟ فعملتم أنتم، فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ فقال: هل نقصتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء).

فاستنبط بعض العلماء من قوله عليه الصلاة والسلام: (إنما أجلكم) يعني: عمركم (فيمن كان قبلكم) مقارنة للأمم السابقة من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أول البشرية، كهذا التقدير من أول النهار إلى صلاة العصر، هذه هي الأمة السابقة، وهي بنو إسرائيل، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (إنما أجلكم فيمن كان قبلكم) تقييد من الأمم السابقة ببني إسرائيل وهم اليهود والنصارى، فجعل عمر اليهود والنصارى هو من أول النهار إلى صلاة العصر، والمتبقي هو من صلاة العصر إلى غروب الشمس،

وما بين ذلك وبين تلك المدة هو أقل من ذلك بكثير.

وعليه يُعلم أن ما بين مولد النبي عليه الصلاة والسلام ومولد عيسى هو سبعمائة وخمسين، وهذا ظاهر، ولكن ما بين عيسى وموسى يفتقر إلى دليل ظاهر بين، ولا دليل في ذلك، ولكن ما كان من هذا مرده إلى الوحي، ولكن يقطع في ذلك أن عمر الأمة يزيد على سبعمائة وخمسين، وهي الفترة التي بين عيسى ومُحَمَّد ﷺ، وأن ما كان بعد ذلك فأمره مجهول، ولكن ما يذكره بعض بني إسرائيل من المدة بين موسى وعيسى فهي تخرصات، منهم من يقول: ألف، ومنهم من يقول: سبعمائة، ومنهم من يقول: خمسمائة، ومنهم من يزيد على ذلك، ومنهم من ينقص، ومنهم من يقول: ألفين، ونحو ذلك، وهي تخرصات.

ولكن المقطوع به أن عمر أمة مُحَمَّد ﷺ لا تزيد عن عمر بني إسرائيل مجتمعة، وهذا نص صريح؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إنما أجلكم)، وجاء أصرح منه في خبر آخر في الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام: (إنما بقاؤكم)، وهذا دليل على أن بقاء الأمة لا يزيد عن بقاء بني إسرائيل وهم اليهود والنصارى، ويبقى هذا الأمر غيبي؛ لأن الله عز وجل اختص به الأمر عنده، وبه يُعلم الحكمة من بيان أشراط الساعة، وذلك أن الله عز وجل حينما بين أشراط الساعة فيستنبط منه أن معرفة وقت الساعة محال، ولو سعى إليه الإنسان لما تحصل، وهذا مقتضى معرفة الأشراط، ولو كان معنى الساعة ووقتها وزمنها معلوماً لما كان لمعرفة الأشراط شيء يراد من نصوص الشريعة، وإلا لبُينت الساعة بزمنها، وما تركت اتكالاً على بعض الأشراط.

وبه يُعلم أن كل من زعم أن قيام الساعة في سنة معينة، أو في يوم معين أنه معتدٍ على الله عز وجل، بل هو كذاب أشر، ولا يتجرأ على ذلك إلا عديم الإيمان، ومنتفي الإيمان بالكلية، ظاهر في النفاق، وأما من يتكلم على سبيل الإجمال أن الساعة قد قربت ودنت فإن هذا هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة، وكذلك كلام رسول الله ﷺ وأصحابه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ممن كان خبيراً بسره وأمره عليه الصلاة والسلام.

موت النبي ﷺ

الشرط الثاني من أشراط القسم الأول من النوع الأول وهو أشراط الساعة الصغرى التي هي قبل الساعة: موت النبي عليه الصلاة والسلام، والدليل على ذلك ما رواه البخاري في كتابه الصحيح من حديث بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس عن عوف بن مالك ، قال: (أتيت إلى رسول الله ﷺ وهو في تبوك في قبة له، فقال رسول الله ﷺ: أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم)، والمراد بالموتان: هو الموت الذي يدب في الناس، فيهلك فيه خلق كثير، (ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا تدع بيتاً من بيوت العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر)، يعني: الروم، وهي أوروبا وأمريكا، (ثم يغدرون، ثم يأتونكم على ثمانين غاية، على كل غاية اثنا عشر ألفاً)، وبجمعها تخرج قرابة المليون شخص، وهذا لم يكن قطعاً.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (موتي) أن النبي عليه الصلاة والسلام لا تقوم الساعة وهو موجود، وذلك أن النبي عليه الصلاة

والسلام هو خير الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام موته هو من علامات الساعة وأشراطها.

ويأتي بعد هذا أيضاً عن رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث مالك عن ابن شهاب عن مُحَّد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا الحاشر يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)، ففي قوله عليه الصلاة والسلام: (أنا الحاشر يُحشر الناس على قدمي)، وفي رواية: (على عقبي)، يعني: حينما أدبر يحشر الناس بعدي، فتأتي قيام الساعة، وقيل: المراد بذلك هو على قيام الساعة أن بين يدي الله عز وجل عند المحشر، وهذا مرجوح، والأرجح في ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام موته عليه الصلاة والسلام هو من علامات الساعة، فيحشر الناس بعده جيلاً بعد جيل إلى موضع المحشر وهي الشام كما يأتي بيانه بإذن الله تعالى.

ونكتفي بهذا القدر، وسنذكر بإذن الله عز وجل فيما سيأتي سرد أشراط الساعة، وبيان أدلتها، وبيان ما يدخل فيها من فروع مما يذكره بعض من صنف في هذا الباب على أنه على سبيل الاستقلال.

أسأل الله عز وجل أن يوفقني وإياكم لمرضاته، وأن يأخذ بي وبكم منهجاً قويماً، وصراطاً مستقيماً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَّد.

الأسئلة

الرد على الذين يخوضون في أشراط الساعة

السؤال: هل هناك رد على أهل البدع الخائضين في أشراط الساعة؟

الجواب: نعم يوجد رد، ومن أعظم الردود ما جاء عن رسول الله ﷺ أن من علامة البدع الأخذ عن الأصاغر، وقد جاء تفسير ذلك عن عبد الله بن المبارك قال: (الأصاغر هم أهل البدع)، أما الصغير الذي يأخذ عن الكبير فليس بمبتدع، يأتي بيانه بإذن الله تعالى.

حكم من حدد زمناً معيناً لقيام الساعة

السؤال: يقول: ألا ترى أنك شددت في مسألة الاجتهاد في تعيين أشراط الساعة، فبعض أهل العلم اجتهد في ذلك فهل يكون كافراً كالسيوطي ؟

الجواب: كلامي واضح وبين، ولا يحتمل مثل هذا الكلام، أشرت إلى أن من حدد الساعة في وقت معلوم أنه منزوع الإيمان، وهذا مقطوع به عندي وعند غيري من أهل الصلة بالإسلام، وأما من تكلم على وجه العموم من أن الساعة قد اقتربت وأنها في

هذا الحدود ونحو ذلك، فهذا يجتهد فيه السلف والخلف كالسيوطي رحمه الله.

وندع الكلام على أشراط الساعة التي تأتي حتى لا نقع في التكرار.

علم الجن بما في نفس الإنسان

السؤال: هل الجن يعلمون ما في نفس الإنسان؟

الجواب: ما في نفس الإنسان على نوعين: ما يكون للإنسان من وساوس قد جلبها إليه بنفسه، أي: بذات الإنسان، وبمعنى آخر تولدت من الإنسان نفسه ومن الخواطر التي يوجدها الإنسان، فهذه لا يعلمها الجن ولا الشيطان، أما ما في نفس الإنسان من وساوس أوحاها له الشيطان من تسويلات وأهواء ومطامع ورغبات فهذه يعلمها الشيطان؛ لأن أصلها من الشيطان، أما ما في قلب الإنسان مثلاً من رغبة بالطاعة أو رغبة في العبادة أو رغبة في عمل المباح، أو تفكير ونحو ذلك فهذا لا يعلمه الشيطان؛ لأنه متولد من الإنسان، ولا يصل إلى الشيطان إلا بوسيلة عرفت سبباً أو عرفت شرعاً، ولا سبيل إلى الشيطان في هذا.

تأويل قيام الرسول ﷺ في صلاة الكسوف خشية قيام الساعة

السؤال: كيف الجمع بين أنه لا تقوم الساعة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، والحديث الوارد في صلاة الكسوف عند البخاري وأنه قام فزعاً يخشى أن تقوم الساعة؟

الجواب: أولاً: هذا المعنى لا يخلو من تأويلين:

التأويل الأول: أن يكون يخشى أن تقوم الساعة هو من تأويل عائشة عليها رضوان الله تعالى، أو تأويل أسماء ، وذلك أن الخبر قد جاء من حديث فاطمة بنت المنذر عليه رضوان الله تعالى عن أسماء عن عائشة عليها رضوان الله تعالى.

التأويل الثاني: يحتمل أن رسول الله ﷺ لشدة تعلقه بالله عز وجل وأمر الآخرة يبادر إلى ذهن الإنسان قرب هذا الأمر. ويشار إلى معنى آخر محتمل أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام لشدة تعلقه بالشفقة على هذه الأمة يخشى أن يأتيها أمر الله عز وجل، فيعاقبها الله عز وجل؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من التخفيف على هذا الأمة بالسؤال، ويظهر هذا في تخفيفه الصلوات الخمس من خمسين إلى خمس صلوات بالتدرج المعروف في حديث الإسراء من حديث أنس وغيره، وكذلك يظهر في سؤال النبي عليه الصلاة والسلام لربه ألا يعذب هذه الأمة بسنة، وألا يسلط عليها من غيرها من يستبيح بيضتها، وهذا من رحمة الله عز وجل، فإذا تعلق الإنسان بشيء خاف عليه، وهذا الخوف لا يناقض هذا الأمر.

والمعنى الأول هو الأولى وهو أن يكون هذا من عائشة عليها رضوان الله تعالى. والله أعلم.

والقرب يختلف بالنسبة للساعة، فالقرب من جهة الأصل للساعة قريبة، وقد يعضد ذلك رؤى يعلم بها الناس أن ثمة قرب أظهر من هذا، وأذكر أنني رأيت رؤيا قريباً وهي من هذا الباب، ليس تعلقاً بهذه الرؤى، رأيت أن صحيفة في جو السماء نشرت، وقد

كتب عليها: قل للناس: إن الساعة قريب. هذه رأيتها بنفسي قبل مدة يسيرة، ونسأل الله عز وجل أن يلطف.

وكثير ممن يتكلم في هذا الأمر في أشراط الساعة ويصنف في ذلك إما يكون من أهل العلم والدراية وصنف في ذلك، ويشكر في هذا، ويعتنى بكتابه، ويستشار في ذلك أهل العلم في هذا، وثمة كتب للمعاصرين في هذا الباب جيدة في هذا، ولكن الإشكال فيها أن فيها محاكاة لمصنفات أخرى، لكن بأساليب تختلف، وهذا هو الأكثر، وهناك من يصنف أيضاً للتجارة، وقد صنف أحدهم كتاباً في هذا الباب سماه "عمر أمة الإسلام"، يعني: تحديد عمر أمة الإسلام، وطار الناس في هذا الكتاب، وبيع منه مصنفات كثيرة جداً، وحتى قال مؤلفه: إنني حصلت ما أريد، وبيع من الكتاب ما بيع، وأصبح رجلاً ثرياً، وبين أمره هذا بعد انتهاء الأمر، وهذا يدل على أن الناس إذا لم يرجعوا إلى أهل العلم يضلون، حتى في أمور يسيرة.

وهذا يدل على ما أشرنا إليه سابقاً أن النفوس تتشوق إلى الغيب، فيحبون ماذا يحدث، ولهذا ينساق كثير من الناس إلى مسألة الكهان والعرافين، وماذا يحدث له غداً والعياذ بالله، وماذا يأتيه من رزق ونحو ذلك.

الدرس الثاني

ظهرت بعض علامات الساعة الصغرى في مراحل مختلفة من حياة النبي ﷺ وبعد موته وحتى يومنا هذا، ومن تلك الأشراط والعلامات التي ظهرت: انشقاق القمر، وموت الصحابة، وظهور الخوارج، واستحلال المعازف وشرب الخمر، ودخول الفتن بيوت العرب، وظهور الأنفاق في مكة، وإعادة بناء الكعبة، وخروج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى.

- **انشقاق القمر**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد تقدم معنا الكلام على جملة من المسائل المتعلقة بأشراط الساعة، ومقدمات مهمة أيضاً، وذكرنا أيضاً من أشراطها علامتين.

العلامة الثالثة من علامات الساعة: انشقاق القمر؛ حيث قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر:1]، وقد جاء عن رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى قال: (كنا مع رسول الله ﷺ بمنى، فانفلق القمر فرقتين أو فلقتين، أحدهما وراء الجبل، والأخرى دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا).

سبب انشقاق القمر

وانشقاق القمر من علامات الساعة التي جعلها الله جل وعلا من معجزات رسول الله ﷺ؛ جلباً لقلوب الضعفاء، ودفعاً للشبهات التي أثاروها حول رسول الله ﷺ.

وفي قوله: (بمنى) دليل على أن ذلك كان في موسم حج قبل هجرة رسول الله ﷺ، ومعلوم أن رسول الله ﷺ قد حج قبل حجة الوداع، ولكن قد اختلف كم مرة حج؟ هل هي مرة واحدة أم أكثر من ذلك؟ وقد ثبت في صحيح البخاري للنبي عليه الصلاة والسلام حجة، وثبت في الصحيحين في ظاهر المعنى في حديث عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى هذا حينما قال: (كنا مع رسول الله ﷺ بمنى).

وقد ذكر جماعة من أهل السير أنه كان عند رسول الله ﷺ حينما شق الله جل وعلا له القمر جماعة من صناديد قريش؛ كأبي جهل و العاص بن وائل و العاص بن هشام و الوليد بن المغيرة وغيرهم من كفار قريش، فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا)، يعني: على هذا، فلما شق الله القمر لنبيه عليه الصلاة والسلام لم يؤمن كفار قريش بذلك، وقالوا: إن هذا من السحر. كما روى ذلك ابن جرير وغيره من حديث أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى قال: (لما شق الله جل وعلا لنبيه القمر فلقتين قال كفار قريش: إن هذا سحر، اسألوا السفار – يعني المسافرين –، فسألوهم، فقالوا: قد رأينا القمر فرقتين).

انشقاق القمر على الحقيقة

وانشقاق القمر هو على الحقيقة، وليس على الخيال، وقد زعم بعض المتأخرين أن هذا من الخيال الذي جعله الله جل وعلا شبيهاً بالتخيلات التي يفعلها السحرة في أعين الناس، كما فعل السحرة من أصحاب موسى، وإن كان قد قال ذلك بعض الأجلة من المتأخرين فلا شك أنه وهم وغلط، وذلك أن الله جل وعلا قد أطلق انشقاق القمر، والأصل في ذلك أنه يحمل على الحقيقة.

ثم إنه لا يظهر فيه الإعجاز إذا كان على التخيلات، فإن الناس يستطيعون أن يفعلوا مثل ذلك، كما يفعل السحرة، ولكن يفعلون في بعض البشر دون سائر الخلق، فلما كان هذا قد تحقق في سائر الخلق ممن حضر مع رسول الله ﷺ وممن كان بعيداً من أهل الآفاق دل على أن هذا هو على الحقيقة، وإن كانوا يعتضدون بما جاء عند ابن جرير الطبري من حديث عكرمة عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى قال: (لما شق الله القمر لنبيه عليه الصلاة والسلام وكسفه)، وجاء في رواية: (كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فكان فرقتين)، قالوا: فلما ذكر عبارة الكسوف دل على أنه حيل بين القمر وبين الشمس بكوكب، فأضاء على شطره، فكان ثمة شيء من الغيم الكثيف على الجهة الأخرى تشبه بجزء القمر الآخر، فتشبه حينئذٍ في أعينهم على أنه انشقاق، وليس كذلك، وإنما هو من الخيال، وهذا لا شك أنه بعيد كل البعد.

والانكساف الذي جاء في الأثر عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى أراد به المعنى، ثم إن عبد الله بن عباس لم يشهد

ذلك، بل كان حين انكساف القمر ربما لم يولد،؛ وقد ذكر جماعة من أهل السير أن انكساف القمر كان قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بأربع، والخمس أقرب، وقد جاء في الصحيح من حديث عائشةعليها رضوان الله تعالى قالت: (نزل على رسول الله ﷺ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر:1] وأنا جارية ألعب قبل الهجرة).

ومعلوم أن عبد الله بن عباس عليه رضوان لله تعالى توفي رسول الله ﷺ وهو قد ناهز الاحتلام، يعني قاربه، فيكون حينئذٍ عمره قريب من الرابعة عشرة، وهذا ثابت كما جاء في البخاري عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى قال: (أتيت إلى رسول الله صلى لله عليه وسلم وهو بمنى، وهو يصلي إلى غير جدار، وأنا غلام قد ناهزت الاحتلام على أتان، قال: فمررت بين يدي بعض الصف، وتركت الأتان ترتع). والشاهد من هذا أن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى قال: (قد ناهزت الاحتلام) يعني: قاربه ولم يحتلم، واستدل بهذا البخاري عليه رحمة الله على أن عبد الله بن عباس لم يبلغ حينما ترجم لهذا الخبر بقوله: (باب متى يصح سماع الصغير) يعني: روايته، ومعلوم أنه حينئذٍ لم يبلغ، فدل على أنه لم يدرك انشقاق القمر، وهذا لا يقدم على من شهد ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى ممن كان مع رسول الله ﷺ بمنى.

عدد مرات انشقاق القمر

وانشقاق القمر جاء في بعض المرويات أنه وقع مرتان كما جاء من حديث أنس بن مالك عند ابن جرير الطبري وغيره من حديث شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك عليه رضوان الله تعالى قال: (انشق القمر في زمن رسول الله ﷺ مرتين). وجاء في بعض المرويات: (فرقتين)، مما يحتمل أن المراد بالمرتين أنه على جزئين، لا ثلاث، وليس المراد بذلك تكرار الانشقاق، وهذا هو الأظهر.

فائدة في نكران كفار قريش لانشقاق القمر مع ظهوره وبيانه

وفي هذا إشارة إلى فائدة عظيمة جليلة القدر، وهي أن الله جل وعلا مهما يظهر من آياته البينة والدلائل المعجزة إلا أن من ران على قلبه، وختم الله جل وعلا عليه أنه لا يؤمن، كحال كفار قريش الذين شهدوا الانشقاق، وأحالوا ذلك إلى السفار من المسافرين، وأهل الآفاق، فسألوهم فصدقوا ما كان من إعجاز على يد رسول الله ﷺ، إلا أنهم لم يؤمنوا أيضاً، وبقوا على كفرهم، مما يدل على أنه ما كان دونه من الإعجاز من باب أولى أن يصد عنه من ختم الله جل وعلا على قلبه، ومما ينبغي معه ألا يلتفت إلى من انصرف عن الحق والصراط المستقيم، وأعرض عن ذلك مع ظهور الحجج البينة من كلام الله جل وعلا، وكلام رسول الله ﷺ، وكذلك ما أخبر عنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام مما يحدث في آخر الزمان من أشراط الساعة وعلاماتها وأماراتها، فيقع جهاراً نهاراً، فيتأولونه يمنة ويسرة، فإذا لم يؤمن أسلافهم بما رأوه رأي العين من إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعد تحديهم، فوقعت المعجزة بعد التحدي، فكانت المناسبة ملائمة لقوة الإعجاز، ومع ذلك لم يؤمنوا، فمن جاء بعدهم من باب أولى.

موت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

الشرط الرابع من أشراط الساعة: موت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التلازم بين بعض أشراط الساعة

تقدم معنا تقرير أصل معين من أصول أشراط الساعة، وهو أن جملة من أشراط الساعة تكون متداخلة، والتداخل في ذلك منها ما يلزم بعضها لبعض، فيكون حينئذٍ انتفاء بعض لازم لورود بعض، وورود بعض لازم لانتفاء بعض، كما جاء في بعض أشراط الساعة من انتفاء وقبض العلم، فإن هذا يلزم منه ظهور الجهل، وكذلك ما جاء من أخبار عن رسول الله ﷺ من ذهاب الصالحين فيلزم منه ظهور الطالحين، ونحو ذلك مما يأتي من بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ من ظهور الظلم والجور مما يدل على قلة السلطان الحق والعدل في الحق، وهذا فيه تلازم.

ويكثر من يتكلم في أشراط الساعة على هذه التفريعات، ويجمع بين المتضادات، فيشكل على الناظر في ذلك، وهذا يحمل على أن هذه الأحوال المتضادة تكون في زمن واحد، فحين قبض العلم يظهر الجهل، وفي ظهور جور السلاطين دليل على انتفاء العدل، وفي انتشار المال والغنى دليل على ظهور الشح، فإن الغنى متلازم مع شح النفس، كما جاء عن رسول الله ﷺ: (لو أعطي ابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً)، وهذا إشارة على الشح، وقد جاء عن رسول الله ﷺ جملة من الأخبار تدل على استفاضة المال، وبعض الأخبار تدل على ورود الشح، فهذا كله يكون في زمن واحد، ولا تكون في أزمان متفرقة.

حصول التداخل فيما بين أشراط الساعة

ومما ينبغي الإشارة إليه: أن ثمة من الأصول من أشراط الساعة ما يكون أصلاً يدخل فيه جملة، كمسألة ذهاب الصالحين، وهي من أشراط الساعة التي يدخل فيها من تفاصيلها ذهاب أصحاب رسول الله ﷺ، وقبض العلم، فإنه لا يمكن أن يوجد علم مع عدم وجود الصالحين الذين يقومون به، وقبض الصالحين لازم لظهور الجهل، وعدم العدل أيضاً. ومن الأصول ظهور الفتن في الناس، ولازم ظهور الفتن ظهور الزنا وشرب الخمر والجهل والهرج وهو القتل، وغير ذلك من فروع هذه المسائل التي ندرج جملة منها تحت أصلها حتى تكون بينة، مخالفين في ذلك ممن يفصل على سبيل التعداد وتكثير التقسيمات في ذلك.

ظهور الفتن بذهاب الصحابة

وموت أصحاب رسول الله ﷺ هو جزء لذهاب الصالحين لظهور علاماته، فالله جل وعلا قد جعل الخيرية في القرن الأول كما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، فخير القرون هم قرن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وتعلق الذهاب بهم أظهر.

والنبي عليه الصلاة والسلام خص ذهابهم بظهور ما توعد هذه الأمة من فتن، كما جاء في صحيح الإمام مسلم من

حديث مجمع عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري قال: (صلينا مع رسول الله ﷺ صلاة المغرب، ثم خرج رسول الله ﷺ فقلنا: ننتظر حتى يأتي رسول الله ﷺ، فأتانا، فقال رسول الله: ما زلتم مكانكم؟ فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلنا: ننتظر حتى نصلي معك العشاء. فقال رسول الله ﷺ: أصبتم، أو قال: أحسنتم، فقال رسول الله ﷺ وقد نظر إلى السماء، وكان كثيراً ما ينظر: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد).

وقوله عليه الصلاة والسلام: (أصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد)، الأمنة والأمان المراد به هنا الأمان من الفتن التي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بظهورها، وانفراط العقد لكثير من الآثام والكبائر، واستحلال المحرمات، وظهور الظلم والفجور في الأرض، وكذلك قبض الصالحين وقبض العلم، وظهور الجهل والشح والزلازل، وتقارب الزمان هو من قرائن قبض الصالحين، وأظهر الصالحين في الأمة هم القرن الأول أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة واقتراب الزمان قبضه عليه الصلاة والسلام كما في حديث عوف بن مالك قال عليه الصلاة والسلام: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس)، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (موتي) الذي أشار إليه هنا في قوله: (أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون)، وما يوعدون بالاشتراك هنا مع ما توعد الأمة هي الفتن، فرسول الله ﷺ لما توفي ظهرت الفتن بعده عليه الصلاة والسلام.

بعض المسائل المختلف فيها بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام

وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في النبي عليه الصلاة والسلام هل مات أم لا؟ فمنهم من قال: لم يمت كعمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى، فقال: قد رفعه الله إليه، حتى حاجه من هو أعلم منه، وهو أبو بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى، فتلا عليه قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[الزمر:30] ، وقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[آل عمران:144]، فدل على أن رسول الله ﷺ يموت كسائر البشر، فسلم لذلك، وأذعن لسلامة سريرته وقصده الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى لما ورد إليه النص بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم اختلف أصحاب رسول الله ﷺ بعد ذلك هل يغسل النبي عليه الصلاة والسلام أو لا يغسل؟ وهل يجرد كما يجرد الموتى؟ فانتزع ذلك الخلاف بأبي بكر الصديق .

ثم اختلفوا أين يدفن رسول الله ﷺ؟ هل يدفن في المدينة موضع هجرته وأزواجه وأصحابه وأنصاره أم يدفن في مكة موضع مبعثه وقبلته؟ وكذلك ما فتح الله جل وعلا عليه فيها، وهي خير البقاع إلى الله؟ أم يدفن في المسجد الأقصى، موضع مسراه وصلاته، وهي قبلته الأولى، وصلاته بالأنبياء خلفه كما جاء عن رسول الله ﷺ مما تقدم الإشارة إليه بإلماحة، ويأتي تفصيله بإذن الله؟ وحسم ذلك بقول أبي بكر الصديق عليه رضوان الله تعالى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدفن الأنبياء حيث يقبضون).

ثم اختلفوا بعد ذلك في إرث رسول الله ﷺ، وكان الخلاف يأتي متسارعاً ولا ينتهي حتى يأتي خلاف آخر، لكنه يحسم بالدليل، فكان ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام: (أتي أمتي ما توعد)، وهو إشارة إلى هذا النوع من الخلاف.

ظهور الفتن في أواخر عصر الصحابة وبعد انقضاء قرنهم

ثم موت أصحاب رسول الله ﷺ، قال: (فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد)، يعني: من ظهور البدع، فظهر في أواخر عصر أصحاب رسول الله ﷺ الفتنة من الخلاف، وظهرت الخوارج، وظهرت القدرية، وظهرت المرجئة، ثم انفرط العقد بظهور الطوائف في الإسلام من الاتحادية والحلولية، والمعتزلة وغلاتهم، والرافضة بأنواعهم في أواخر عصر أصحاب رسول الله ﷺ إشارة إلى ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام: (فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون).

وقوله عليه الصلاة والسلام: (فإذا ذهب أصحابي) إشارة إلى العصر التام، أي: أنه كلما ذهب جملة منهم ظهر شيء من الفتن، فإذا ظهر القرن كاملاً أتى الأمة ما توعد من الاقتتال وظهور الجهل، ونحو ذلك، ويظهر هذا فيما جاء في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عليها رضوان الله تعالى قالت: (كان الأعراب إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن الساعة، فكان رسول الله ﷺ ينظر إلى أحدث القوم سناً، فقال: إن يعش هذا ولا يهرم تأتكم ساعتكم أو تأتي الساعة)، على خلاف عند العلماء في هذا المعنى كما تقدم الإشارة إليه.

والأصل في ذلك أن القيامة لا تقوم على الصالحين، ولا تقوم وفي الأرض أحد يقول: الله الله، فيكون حينئذٍ كل من على الأرض من أهل الجهالة المتمحضة، فلا يبقى حينئذٍ حق؛ وقد جاء في البخاري من حديث قيس بن أبي حازم عن مرداس الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (يذهب الصالحون الأول فالأول، فيبقى حثالة أو حفالة من البشر فتقوم عليهم الساعة)، وفي رواية عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح وهي الأصل: (لا يأبه الله بهم، وعليهم تقوم الساعة) كما جاء في حديث النواس بن سمعان عليه رضوان الله تعالى عند الإمام مسلم .

وقيام الساعة على شرار الخلق متلازم لذهاب الصالحين، وذهاب الصالحين هو من علامات الساعة، وهو من أظهر شرائطها، وأظهر ما يزول من الصالحين هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقبل ذلك سيد ولد آدم النبي عليه الصلاة والسلام، فهو أول علامات الساعة الست التي جاءت في حديث عوف بن مالكعن رسول الله ﷺ.

قبض العلم

ذهاب الصالحين من علامات الساعة، ولا تقوم الساعة على صالح، ويلزم من هذا – وهذا من أشراط الساعة– قبض العلم، وقبض العلم يكون على التدريج، كما جاء عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى: (يذهب الصالحون الأول فالأول)، أي: أنهم يذهبون شيئاً فشيئاً، والصلاح لا يكون إلا بوجود المصلح، والمصلح هو الآلة، وكذلك الشخص وهو العالم، ولا يوجد عالم إلا بعلم، فلما قبض العلم وقل العلماء دل على قبض العلم بقبض العلماء، فيكون حينئذٍ على نزول حتى ينتفي أهل العلم، فيبقى الجهل منتشراً في الناس، وهذا بالنسبة للناس نسبي، إلا أنه في آخر الزمان الذي يعقبه قيام الساعة ينتفي في الخلق بالكلية.

ويظهر هذا كما جاء عند ابن ماجه – وهذا من أشراطها أيضاً – من حديث أبي مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، إلا رجال يقولون: كنا أو أدركنا آباءنا يقولون: لا إله إلا الله، فنحن نقولها كما يقولون، فقال صلة لحذيفة بن اليمان : ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صدقة ولا صيام ولا نسك؟ فأعرض عنه مرة، فأعاد عليه، فلما كان في الثالثة التفت إليه حذيفة وقال: تنجيهم من النار لا أبا لك)، وهذا فيه إشارة إلى أن الإنسان يعذر بجهله، فإذا كان من أهل الجهالة في الأصول فإنه يعذر في الأصول، وتقوم عليه الحجة بحسب بلوغ الحكم عليه.

والله جل وعلا قد أخذ على نفسه أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث إليه رسولاً ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15]، وهذا ظاهر في قول الله جل وعلا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، والسماع المراد به هنا هو بلوغ الحجة لا فهمها، فإن الإنسان قد لا يفهم الحجة، أو يكون من المعاندين، فالإحالة إلى شيء لا يدرك لا يمكن أن يتقرر في الشرع؛ ورسول لله ﷺ قد قاتل المشركين لمجرد الإسماع على وجه يفهمونه لو أراد.

وأما مسألة الإفهام فإنه لا يتعلق بها حكم شرعي، وذلك أن الإفهام متعلق بالقلب، والقلب مرده إلى الله؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ كما في الصحيح: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)، فالنظر إلى القلوب هو من خصوصيات الله جل وعلا، والظواهر إلى العباد، فلما تبلغ الحجة الناس حينئذٍ يلزمون بالاتباع، وإن اعتذروا بعدم الفهم فلا يعتبر بذلك إذا كان قد بلغتهم الحجة على وجه يفهمونها لو أرادوا.

المقصود بقبض العلم

وقبض العلم قد جاء مفسراً عن رسول الله ﷺ، كما جاء في الصحيح من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى لله عليه وسلم يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسألوا، فأفتوا بغير علم، فأضلوا وأضلوا)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا يقبض العلم) قبض العلم أضيف إلى الله، وتصدير الجهال أضيف إلى الناس، (حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً)، ومعلوم أن الله جل وعلا هو المقدر لذلك كله، ولكن المراد في المسألة الأولى أن الله يقبض العلم لحكمة زائدة عن الشأن القدري وهو انتشار الجهل في الناس، وأن يصدر الناس الجهال؛ ويؤخذ من هذا فائدة أن العالم يصدر نفسه بين الناس ولا يصدره الجهال، وعلماء السوء يصدرهم الناس، وهذا ظاهر في قوله عليه الصلاة والسلام: (اتخذ الناس رءوساً جهالاً)، أما العلماء فالله جل وعلا هو الذي يتخذهم.

التلازم بين ظهور الجهل وقبض العلم

ويلزم من ظهور الجهل قبض العلم، ومن قبض العلم ظهور الجهل، ومن انتفاء الجهل ظهور العلم، وكلها متلازمة تكون بين زمن إلى زمن، تظهر وتخبو حتى تزول، ويتأرجح ذلك بحسب وجود العلم والخيرية بين الناس، والخيرية المراد بها هنا هي وجود العلم، كما قال رسول الله ﷺ كما جاء في البخاري : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فالخيرية المراد بها هنا هي الفقه في الدين.

ويلزم من هذا أن الشر كما جاء في بعض الأدلة في آخر الزمان من وصف الناس بالشرار، أو وصف الزمن بالشر، المراد به انتفاء الفقه في الدين، وبه يعلم أن ما جاء في بعض النصوص من انتشار القراء وكثرتهم، وقلة الفقهاء أن وجود القراءة في الناس قراءة القرآن وضبطه وحفظه لا يلزم منها علماً، وقد جاء في بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ قال: (يكثر قراؤكم، ويقل فقهاؤكم)، وهذا فيه إشارة إلى أن القراءة وحدها من مواضع الضلال في الأمة إذا لم يكن ثمة فقه.

ظهور القلم وفشو الكتابة

ويظهر الجهل في معنى آخر وهو ظهور القلم وفشو الكتابة، فقد جاء عن رسول الله ﷺ كما عند الإمام أحمد في كتابه المسند، ورواه البخاري في كتابه الأدب، من حديث سيار أبي الحكم عن طارق بن شهاب عن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: (يظهر القلم في آخر الزمان).

وظهور القلم مع انتفاء العلم وظهور الجهل دليل على أن المراد بالقلم هو انتشار الكتابة والقراءة، والقراءة والكتابة لا تعني علماً، وليس كل من حمل القلم وحمل الكتابة يكون عالماً، وقد جاء في بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ قال: (يلتمس الكاتب في البلد فلا يوجد إلا الواحد مع وجود القلم)، وهذا فيه إشارة إلى معانٍ: المعنى الأول: إشارة إلى الظنية في انتشار العلم، وأن العلم يبتغى به التجارة، فلا يوجد شخص يتبرع بكتابة إلا الواحد والاثنان، وهذا إشارة إلى ما ظهر في الأعصار المتأخرة أن العلم وتعليم الكتابة والقراءة لا يكون إلا برواتب يدفعها الطلاب للمعلمين، وما يسمى الآن بالمدارس والبرامج التعليمية، وغير ذلك، فتعدى ذلك إلى ما هو أبعد من القلم والكتابة إلى سائر العلوم، وهذا لازم كما تقدم الإشارة إليه في ظهور الجهل في الناس، وليس بلازم من انتفاء العلم، فقد يوجد العلم ويفشو القلم، وقد لا يوجد العلم، ولا يوجد القلم أيضاً، وقد يوجد القلم مع وجود العلم، وقد يوجد القلم مع عدم وجود العلم، وهذه قد تتلازم، وقد لا تتلازم.

وهذه الأنواع يذكرها كثير ممن يتكلم في أشراط الساعة على أنها أصناف منفردة، وهي داخلة من جهة الأصل تحت قول رسول الله ﷺ: (يذهب الصالحون الأول فالأول)، ونحن أدرجنا هذه الجمل وهذه الأنواع في هذا الموضع.

فتح بيت المقدس

ومن أشراط الساعة ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عوف بن مالك مما جاء في الصحيح من حديث بسر عن أبي إدريس عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، وفتح بيت المقدس)، ففتح بيت المقدس

من علامات الساعة، وقد جاء هذا عن رسول الله ﷺ في أحاديث أخر، وهذا من أصح ما جاء فيه.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ثم فتح بيت المقدس) (ثم) هنا تدل على الترتيب الزمني، وقد تدل على الترتيب الذكري في لغة العرب، ويستدلون لهذا بقول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذاك جده

وتأتي على ترتيب الزمن على الأشهر والأكثر كما هنا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس).

فتح عمر لبيت المقدس

وفتح بيت المقدس فتحه عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى في عام ستة عشرة من الهجرة، وقد فتحه عليه رضوان الله تعالى وصلى به، وعمر فيه المسجد المعروف الآن بمسجد بيت المقدس.

والمراد بمسجد بيت المقدس ما هو أوسع من ذلك وهو الحائط تاماً، ويدخل فيه ما يسمى بمسجد قبة الصخرة، ويدخل فيه أيضاً مسجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى، فكله يسمى المسجد الأقصى وبيت المقدس.

والمراد ببيت المقدس المراد بذلك المدينة، وإنما أشير إلى بيت المقدس لأنه هو المقصود من جهة التعظيم، فيكون كل ذلك تبعاً له، فلما فتح بيت المقدس كان حكامه وولاته حينئذٍ النصارى، ففتحه عمر بن الخطابعليه رضوان الله تعالى.

وتلاه بعد ذلك ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من علامة أخرى وهي وقوع الطاعون، ويأتي الإشارة إلى ذلك أيضاً بعد فتح بيت المقدس بسنتين.

عدد مرات فتح المقدس

وقد فُتح بيت المقدس مرتين: المرة الأولى في خلافة عمر بن الخطاب ، والمرة الثانية في خلافة صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس من الهجرة.

وسيفتح أيضاً في آخر الزمان كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقد جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ستقاتلون اليهود، ويقتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي خلف الشجر والحجر، فيقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)، وهذا فيه إشارة إلى أن المقتلة تكون في بلاد فلسطين، ويكون حينئذٍ الولاية لليهود وليست للنصارى، كما كان في السابق، وهذا من علامات الساعة أنه يتولى اليهود على

بيت المقدس، ثم يعقب ذلك فتح، فيكون حينئذٍ ثمة علامتان من علامات الساعة في هذا الموضع: العلامة الأولى: أن يتولى أمر بيت المقدس اليهود، وقد حدث هذا، ويليه بعد ذلك الفتح على أيدي المسلمين، وهو الفتح الذي لا يعقبه ولاية على بيت المقدس إلا الشرار العام الذي يستوعب الأرض في آخر الزمان، وهو آتٍ لا محالة.

فضل قبة الصخرة ومسجد الصخرة

ومن الفوائد التي ينبغي أن يشار إليها هنا: أن ما يذكر في كتب التاريخ في مسألة قبة الصخرة ومسجد الصخرة، فإن هذا لم يثبت فيه عن رسول الله ﷺ شيء، وما جاء في ذلك إنما هو آثار، وقد بنى ذلك عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وذلك نكاية بابن الزبير ، فإن ابن الزبير لما كان بمكة كان يخطب في الحرم، ويتكلم في عبد الملك بن مروان ، فأراد أن يجعل مسجداً في هذا الموضع، فجعل مسجد قبة الصخرة، وأخذ يخطب فيه ويتكلم في ابن الزبير ، فهو إنما بنى هذا المسجد لهدف سياسي، وليس لجمع المسلمين تحت ولاية عامة، حتى يصلوا فيه على التعبد كما هو ظاهر.

ولم يثبت عن رسول الله ﷺ في فضل هذا الموضع شيء، بل ثبت عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى خلاف ذلك، كما رواه الإمام أحمد في كتابه المسند من حديث أبي سنان عن عبيد بن آدم و أبي مريم عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى أنه (لما فتح بيت المقدس، وكان بالجابية، قال لكعب الأحبار : أين تراني أصلي؟ فقال: صل، واجعل أمامك الصخرة فيكون البيت كله أمامك. فقال: قد ضاهيت اليهود، أو ضارعت اليهود، فتقدم عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى فصلى أمام الصخرة).

وفيه إشارة إلى أن هذه الصخرة معظمة عند اليهود، وهم يعظمونها، وبقي من بقاياها ما كان اعتقاداً عند كعب الأحبار وكان يهودياً فأسلم، وبقي من بقايا علم اليهود لديه هذا المعنى، فجرى على لسانه فيما يظهر من غير قصد.

وفيه إشارة من قول عمر عليه رضوان الله تعالى هنا: (ضاهيت اليهود، أو شابهت اليهود) إلى أن هذا ليس من شريعة الإسلام، وطرأ عليه جملة من المسائل، منها ما وضعه المتأخرون من جملة الكتابات والرسوم على الحجرة، ووضع رسم قدم، وأنها قدم النبي عليه الصلاة والسلام لما أسري به، وكل هذا من الخرافات، وقد جاء في ذلك خبر عند الطبراني وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عمرو الأسلمي النبي عليه الصلاة والسلام قال: (تمر العجوة والصخرة من الجنة)، وقال بعض الشراح: إن المراد بالصخرة هي القبة التي بنيت عليها قبة الصخرة، وهذا لا يصح، وقد صحح الخبر هذا الحافظ ابن حجر ، وحمله على أنها قبة الصخرة ابن الأثير ، و ابن حجر ، ولا يثبت عن أحد من العلماء من السالفين ممن سبقهم في هذا المعنى أحد، وقد يحمل على أن المراد بالصخرة هنا هي الحجر الأسود، وقد جاء في ذلك خبر أنه من الجنة، وقد أنزله الله جل وعلا إلى الأرض، والخبر قد أعله غير واحد من الحفاظ، وليس هذا موضع الكلام عليه، وتقدم الكلام عليه في غير هذا الموضع.

استفاضة المال وظهور الشح

ومن علامات وأشراط الساعة: ما جاء في حديث عوف بن مالك قول رسول الله ﷺ: (ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة

دينار فيظل ساخطاً)، وفي هذا إشارة إلى استفاضة المال وكثرته في أيدي الناس.

التلازم بين استفاضة المال وظهور الشح

ويلزم من استفاضة المال إيراد شرط من أشراط الساعة وهو ظهور الشح، وذلك أنه قد جاء عن رسول الله ﷺ عند البخاري و مسلم من حديث عبد الله بن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لو أعطي ابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملئ فم ابن آدم إلا التراب)، وهذا فيه إشارة إلى أن الشح متلازم مع ظهور المال.

وظهور المال واستفاضته قد ظهر في بعض الأعصار كما جاء في خلافة عمر بن عبد العزيز عليه رضوان الله، وقد جاء في بعض الأعصار، ومنها عصرنا، حيث استفاض وظهر الشح، وملك كثير من الناس أموالاً طائلة لم تعهد عند السابقين، وهذا ظاهر.

علاقة القناعة والسعادة بالمال

والإشارة إلى استفاضة المال وظهور الشح فيه فائدة ومعنى جليل القدر إلى أن القناعة والسعادة لا علاقة لهما بالمال، وذلك أن الشح إذا وجد في الإنسان وجدت التعاسة والشقاوة، وإذا وجدت القناعة ولا توجد مع المال وجدت حينئذٍ السعادة، والغالب في من يستفيض عنده المال أنه لا يكون من أهل السعادة، وإنما يكون من أهل الشح.

انشغال الناس بخاصة أنفسهم

ومن فروع كثرة المال واستفاضته وهو قرينة لظهور الشح انشغال الناس بخاصة أنفسهم، وعدم ما يسمى بحب العلاقة، وتكثير العلاقة، وانشغاله بالخصوصية، وهذا من آثار الشح، حتى يخشى الإنسان الاستدانة ويخشى الصدقة، أو الإحسان إلى الغير، ويخشى طراق الأبواب، وهذا يظهر مع غلبة الشح، ويلزم من هذا تسليم الخاصة، أي: ألا يسلم الإنسان للإنسان إلا للمعرفة، ويلزم من هذا قطيعة الأرحام، كما جاء عن رسول الله ﷺ من حديث عبد الله عند البخاري في الأدب، وعند الإمام أحمد من حديث طارق بن شهاب عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يفيض المال، وتقطع الأرحام، ويظهر تسليم الخاصة، وتكثر الفتن).

وتسليم الخاصة ألا يسلم الإنسان إلا لخاصته، ولا يسلم لقرابته ولا لأرحامه، ويخشى أن يكون من الناس من يتعرف عليه لأجل ماله ولغلبة الشح على الناس، وهذا ظاهر، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في المسند من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (من أشراط الساعة أن يمر الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة)، وهذا متلازم لظهور الشح.

فشو التجارة

ويلزم أيضاً من ظهور المال واستفاضته فشو التجارة، وهو لازم لظهور المال، وقد جاء عن رسول الله ﷺ عند الإمام أحمد في المسند من حديث سيار أبي الحكم عن طارق عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (وتفشو التجارة)، وجاء في السنن والمسند:

(حتى تعين المرأة زوجها على التجارة)، يعني: لكثرة وتشعب تجارته، حتى إن المرأة تنشغل مع زوجها بتسيير أمور تجارته، وهذا يدل على استفاضة المال، وكثرة التجارة عند الناس.

وفي هذا إشارة إلى أن استفاضة المال لعلة ورود التجارة، وليس لغير هذه العلة، وقد ترد غير هذه العلة مما يظهر في آخر الزمان من السرقات، أو الإقطاعات، أو الاختلاسات، ونحو ذلك، ولكن الأظهر من ذلك هو أمر التجارة، كما جاء مقترناً في حديث عبد الله وحديث أبي هريرة وغيرهما عن رسول الله ﷺ، وهذه أشراط متتابعة هي تابعة لمسألة استفاضة المال.

ومن ذلك أيضاً: أن تجعل الزكاة مغرماً، وألا تخرج الزكاة، وهذا لازم للشح واستفاضة المال، ويأتي الكلام على مسألة الزكاة.

كثرة الفتن وتنوعها

ومن علامات الساعة: كثرة الفتن التي أخبر عنها رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة.

والفتن هي أكثر أشراط الساعة وروداً على لسان رسول الله ﷺ على الإطلاق، سواء على وجه الإفراد، أو على سبيل الإجمال، وقد جاء عن رسول الله ﷺ بيان أشراط الساعة على سبيل الإجمال، فمنها ما جاء في حديث عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (ثم فتنة لا تدع بيتاً من بيوت العرب إلا دخلته)، يعني: أنها جاوزت الطرقات إلى بيوت الناس، وتخصيص العرب بمعنى أنها اقتحمت العرب مع شدة احترازهم، وانتقلت من غيرهم إليهم.

والفتنة التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام منها ما يتعلق بالمال، وتقدم الإشارة إليه، ومنها ما يتعلق بالعلم، وهو قبض العلم ويلزم له ظهور الجهل، ويأتي الكلام عليه.

ظهور القتل في الناس

ومن أنواع الفتن أيضاً: ظهور القتل في الناس، ومن أوائل الفتن التي ظهرت في الناس هي ما وقع بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقتلة، كما جاء في الصحيح من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لا تقوم الساعة حتى يقع بين فئتين من المسلمين مقتلة عظيمة دعواهما واحدة)، وقد وقعت بين أصحاب رسول الله ﷺ في الجمل وصفين، ووقعتا الجمل وصفين قارنها ظهور الخوارج، وهي من علامات الساعة كما جاء في البخاري من حديث سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالبعليه رضوان الله تعالى قال: (يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، إن لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم)، وقد جاء في ذلك جملة من الأخبار عن رسول الله ﷺ في وصفهم، ويأتي الكلام عليهم.

اضطراب العلماء في الفتوى والبيان

والفتن التي جاءت عن رسول الله ﷺ في التحذير منها: منها ما يتعلق بالعلم، ومنها ما يتعلق بالعلماء، واضطرابهم في الفتوى، وعدم اتزانهم، حتى يخضع العامة لقولهم في يوم، وينتكسون عنه في اليوم الآخر، وهذا جاء عن رسول الله ﷺ مبيناً في الصحيح من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل، يمسي الرجل مؤمناً ويصبح كافراً، أو يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا).

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (يمسي مؤمناً ويصبح كافراً) إشارة إلى سرعة تقلب الرأي عند القدوة في الإيمان والكفر؛ وقد جاء عند ابن أبي شيبة من حديث خيثمة عن عبد الله بن عمرو قال: (يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد ليس فيهم مؤمن)، وإسناده صحيح عن عبد الله بن عمرو عليه رضوان الله تعالى، وله حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ.

ويظهر هذا في مسألة الاضطراب حتى عند أهل العلم ما جاء عن رسول الله ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو السابق في قوله: (إن الله لا يقبض انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق)، فقوله: (حتى) إشارة إلى الغاية أنه لا يبقى عالم، مما يدل على ورود التدرج شيئاً فشيئاً بنقصان العلم، فيكون حينئذٍ الجهل والعلم بينهما مغالبة ومدافعة.

والسنة عند ورود الاشتباه أن يبرز العلماء للناس ليبينوا الحق، وأن يزاحموا الباطل، وقد روى البخاري من حديث عبد العزيز بن مسلم عن عبد الله بن دينار (أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ابن حزم قال: انظروا إلى سنة رسول الله ﷺ فاكتبوها، فإني خشيت دروس العلم وذهاب العلماء). ثم قال عليه رحمة الله: (وليجلس في العلم حتى يعلم من لم يعلم، فإن العلم لا يذهب حتى يكون سراً)؛ ولهذا العالم الذي يلزم داره ولا يبرز للناس هو من أسباب فشو الجهل، وقد أمر رسول الله ﷺ بمخالطة الناس، وإظهار المعروف فيهم.

ويظهر أيضاً هذا في مسألة تقلب العلم عند أهل العلم، والتقلب والتردد في الرأي كما ما جاء في البخاري من حديث أبي إدريس الخولاني عن حذيفة بن اليمان قال: (كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. فقلت: يا رسول الله! وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهتدون بغير هديي، ويستنون بغير سنتي، تعرف منهم وتنكر)، فقوله هنا: (تعرف منهم وتنكر) أي: تعرف حقاً وتنكر باطلاً، فلا تستطيع حينئذٍ أن تميز، (قال: فقلت: يا رسول الله! وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله! فبم توصيني إن أدركت ذلك؟ قال: عليك بإمام المسلمين وجماعتهم. قال: فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة؟ قال: عليك بخاصة نفسك حتى يدركك الموت وأنت على ذلك).

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (تعرف منهم وتنكر) إشارة إلى امتزاج الحق بالباطل فيمن يهتدي بغير هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإشارة أيضاً من رسول الله ﷺ أنه يعقبهم بعد ذلك انسلاخ تام، وهو (دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها

قذفوه فيها)، فلم يجعل من قولهم معروفاً ومنكراً.

ومن المعلوم أن المراد بالمعروف أن الإنسان إذا رأى شيئاً سبق أنه عرفه أنه حق، أو عرف أنه باطل، وما ينكره، أي: أنه لم يكن في الأسلاف؛ ولهذا قال الله جل وعلا في قصة يوسف عليه السلام لما قدم عليه إخوته: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف:58]، ومسألة النكران هنا أنكرهم لأنه لا يعرف هذه الوجوه، ولم يكن قد رآها من قبل، مما يدل على أنه يبسط من المسائل مما لم يعرف.

من آثار الفتن وقبض العلم

وقد مثل رسول الله ﷺ ببعض الأمثلة مما يظهر في آخر الزمان من آثار الفتن وقبض العلم، منها: ظهور الزنا، وشرب الخمر، واستحلال المعازف، واستحلال الزنا، واستحلال الخمر، وذلك فيما جاء عن رسول الله ﷺ كما رواه البخاري فقال: قال هشام بن عمار : حدثنا صدقة بن خالد قال: حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن خالد قال: حدثنا عطية بن قيس عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك أو أبي عامر الأشعري قال: (حدثني رسول الله ﷺ ووالله ما كذبني: يأتي قوم في آخر الزمان يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف)، والحر المراد به الزنا، وما جاء في هذا الخبر هو خبر صحيح، وقد جاء وصله عن رسول الله ﷺ عند أبي ذر وهو راوية البخاري من حديث الحسين بن سفيان عن هشام ، وجاء عند الطبراني من حديث مُحَمَّد بن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار به في كتابه مسند الشاميين، وجاء عند الطبراني أيضاً في كتابه المعجم الكبير من غير هذا الوجه من حديث جعفر بن مُحَمَّد و موسى عن هشام بن عمار عن صدقة بن خالد به، وقد جاء من غير هذا الوجه عند أبي نعيم من حديث عبدان و الباغندي عن هشام عن صدقة بن خالد به، وقد جاء عند أبي داود من غير هذا الوجه، وقد جاء من حديث بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن خالد عن عطية بن قيسعن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك أو أبي عامر عن رسول الله ﷺ، وهو صحيح، ولا ريب فيه باتفاق المتأخرين من النقاد، ولا أعلم أحداً من أعل هذا الحديث قد سبق ابن حزم الأندلسي و أبو طاهر القيسراني، حتى من سلك مسلكهم في الإعلال قد صححه لما ثبت من وصله عند من قال بتعليقه، وهو ثابت موصول عن رسول الله ﷺ.

ظهور الزنا واستحلاله

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (يستحلون الحر) وهو الزنا، وقد جاء في مسألة الزنا علامتان:

العلامة الأولى: ظهور الزنا كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة وغيره،

العلامة الثانية: استحلال الزنا، وظهور الزنا لا يلزم منه الاستحلال، وإنما يفشو في الناس ويكون تجارة، حتى لو سئل الشخص

عن الزنا، فقال: حرام؛ لأنه لا يرضاه لنفسه.

وظهور الزنا إشارة إلى أنه مستساغ، فطالبه يجده من غير نكير، والاستحلال أعمق من ذلك وأظهر.

استحلال المعازف

وقد ظهرت أولى ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي مالك بن عمرو الأشعري وهو استحلال المعازف، وقد جاء هذا في لسان بعض أهل العلم في زماننا في استحلال المعازف، والمراد بالمعازف هي الملاهي من الموسيقى وآلات الطرب بعمومها مما أخبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء كذلك عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، كما جاء من حديث سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس في مسألة الكوبة، وما في أحكامها، وهي الطبل، وجاء أيضاً من حديث نافع عن عبد الله بن عمر في مسألة المزمار وغيره، وجاء في كلام جملة من العامة ممن ينتسب للإسلام، فأصبحت تشريعاً في بعض الدول الإسلامية إباحة الزنا.

وأصبح القانون في أكثر الدول الإسلامية أن الرجل إذا وقع على امرأة برضاها من غير عقد أن ذلك جائز، وأما المرأة فلا يجوز لها، ويمنع الرجل أن يطأ غير زوجته بحرام في فراشه وعش الزوجية، ويعتبر هذا خيانة، أما في غير ذلك فهو جائز، وهذا مطبق في سائر بلاد الشام كلها، وفي بعض دول الخليج، يعني: أن ذلك إذا كان تراضياً بين الطرفين فلا يعد جرماً، ولو جيء بأربعة شهداء، وهذا ما أخبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام، فزاد هذا عن مسألة ظهور الزنا إلى مسألة ما يسمى بالاستحلال.

وقد جاء في مسألة ظهور الزنا بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وهو أن الرجل يزني بالمرأة على قارعة الطريق، أي: يفترشها، كما في المسند وعند أبي يعلى و الطبراني وغيرهم من حديث أبي سعيد ، وجاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ قال: (ثم يبعث الله ريحاً من تحت آباطهم فتأخذ أرواح المؤمنين، ثم يموجون، فيتسافدون كما تتسافد الحمر)، والمراد بذلك أن يقع الرجل على المرأة كحال الحمر علانية، وهذا يكون بعد قبض أرواح المؤمنين.

وجاء في بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ (أن الرجل يفترش المرأة في قارعة الطريق، فيكون خيرهم من يقول: لو استترت عن الناس)، أي: يكون خير من يقول له: لو استترت عن أعين الناس، وهذا تفسير لبعض ما يذكره العلماء في أشراط الساعة مما هو داخل في أبواب الفتن وقبض العلم.

شرب الخمر وانتشاره في الناس

ومن آثار ذلك وصوره: شرب الخمر وانتشاره في الناس، وهو ظاهر، وبه يعلم أنه لا يوجد دولة من دول العالم في يومنا هذا إلا ويوجد فيه بقعة يباع فيها الخمر علانية بإذن وتصريح، إلا هذه البلاد، حتى استوعب ذلك حالياً الآن جميع دول الخليج، والتي لا يوجد في سوقها يوجد في المطار فيما يسمى بالسوق الحرة، ويباع علانية، وهذا مصداق لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من الاستحلال، وما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من شرب الخمر.

استحلال ما دون الكبائر

وفي هذا إشارة إلى جملة من مسائل أشراط الساعة وما يدخل في فروعها: أنه إذا استبيحت هذه الكبائر الظاهرة التي تنبذها الفطرة كمسألة الزنا، مما يدل على أن ورود الفروع مما هو دونها على وجه الاستحلال من باب أولى، كاستحلال حلق اللحى، واستحلال الإسبال، واستحلال جملة من فروع الدين، أو جعل بعض الشرائع لا علاقة لها بالدين، فهذا يكون حينئذٍ من باب أولى، ويعلم به تسليماً أن ما نبذته الفطرة عقلاً، ونبذه الدين نصاً استحل وظهر في الناس، فلم لا يستحل ما هو دونه من أمارات الشريعة وعلاماتها.

ونحن نسمع بين فينة وأخرى أن هذا ليس من الدين، أو أنه ليس بواجب، ويخفف من واجب إلى مستحب، ثم إلى أنه لا علاقة له بالشريعة، ويجب أن يعلم أن الإقرار بوجود هذا الأمر شريعة ووجوب التزامه مع مخالفته أهون عند الله جل وعلا بمراحل ممن يستحل الحرام، فيسول للنفس الوقوع.

ويظن كثير من العامة أنه إذا سول لنفسه أن هذا الأمر مباح أن هذا يرخص له من الإثم، وكأنه يريد أن يقدم إعذار الناس له أنه يرى هذا الأمر جائزاً عن عقاب الله جل وعلا، وبه يعلم أن هذا من وسائل الثبات لأهل الحق واليقين الذين يقفون على حدود الله جل وعلا ونصوصه، فيستبصرون بمواضع الحق، فإذا رأوا رجلاً أو عالماً قد استحل ما حرم الله بذريعة من الذرائع؛ أن يعلموا أن هذا من علامات الساعة التي أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام، إما صراحة، وإما ضمناً، وهذا ظاهر.

وقوع الطاعون

ومن علامات الساعة التي تقدم الإشارة إليها، وأحلنا الكلام عنها، وهي مسألة: (موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم)، وقد جاء هذا في حديث عوف بن مالك عليه رضوان الله تعالى وهو الطاعون، والمراد به موتان، وفيه إشارة إلى المبالغة من موت، وهو الموت الذي يفتك في الناس.

وقد وقع الطاعون، ويسمى طاعون عمواس، وهو في بيت المقدس، بجوار المسجد الأقصى، في العام الثامن عشر من الهجرة، ومات فيه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وخيارهم، مات فيه معاذ بن جبل و أبو عبيدةو الفضل بن عباس وجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: إنه مات في ذلك الطاعون أكثر من خمسة وعشرين ألف رجل وامرأة، وهذا عدد كبير جداً قل أن يحدث في التاريخ.

وحينما عقب النبي عليه الصلاة والسلام مسألة الطاعون بعد فتح المقدس إشارة إلى أن هذا يعقب فتح بيت المقدس.

دخول الفتن بيوت العرب

ومن الصور التي ينبغي أن تلحق في مسألة الفتنة التي أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام في مواضع عديدة، وتقدم الإشارة على

أن أظهر أشراط الساعة على لسان النبي عليه الصلاة والسلام وروداً هو الفتنة على وجه العموم.

والفتن في لغة العرب هي جمع فتنة، وهي ما يظهر منها ابتلاء واختبار وتمييز للناس، وتشق الصفوف إلى يمين ويسار، أو إلى أكثر من طائفة، وهي التي يبتلي الله عز وجل بها المسلمين حتى يمتاز الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان من غيرهم.

ومن صور الفتن التي ينبغي أن يشار إليها: ما أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام من دخول بيوت العرب في حديث عوف بن مالك قال: (ثم فتنة لا تدع بيتاً من بيوت العرب إلا دخلته)، وجاء عند الإمام أحمد في مسنده من حديث مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (لا تدع بيت مدر ولا شعر إلا دخلته)، يعني: هذه الفتنة تدخل حتى بيوت الشعر، وجاء عند ابن أبي شيبة في كتابه المصنف من حديث منصور عن شقيق عن حذيفة قال: (ليوشكن أن يصب عليكم الشر من السماء حتى لا يدع بيتاً إلا دخله حتى الفيافي. قالوا: وما الفيافي؟ قال: الأرض القفر) يعني: البوادي.

والذي يظهر لي والله أعلم أن المراد بذلك هو الإعلام، وهو البث الفضائي، سواء القنوات، أو الإذاعات، أو غيرها، ويفسره ما جاء عند الإمام مسلم في كتابه الصحيح من حديث عروة عن أسامة قال: (صعد رسول الله ﷺ أطام من آطام المدينة، فقال: أترون ما أرى، كأني أرى مواقع الفتن في بيوتكم كمواقع القطر) يعني: المطر، إشارة إلى أنها تصيب كل موقع؛ ولهذا يجري على ألسنة الناس مسألة أن القنوات هي تبث وتمطر على الناس، ويستطيع الإنسان أن يأتي بها سواء في بيوت الشعر أو غيره.

والقرائن التي تدل على هذا عدة:

منها: ما جاء في رواية مسند الإمام أحمد : (لا تدع بيت شعر ولا مدر إلا دخلته) هذه واحدة.

والثانية ما جاء في الموقوف على حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله تعالى قال: (حتى الفيافي، قال: الأرض القفر)؛ ولهذا أنت حينما تذهب إلى البادية تجد أن أهل القرى وأرباب البوادي ورعاة الشاة والإبل لديهم صحون فضائية يستقبلون، ولو كانوا في صحراء قاحلة، ولو رفع أحدهم صوته ما سمعه أحد، فيستقبلون البث الفضائي.

ومن القرائن أيضاً: ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: (كمواقع القطر) أي: أنها تأتي في كل موقع، وهذا ما يستطيع أن يأتي به الإنسان من البث الذي يدرك الإنسان في وسائل الإعلام من القنوات أو الانترنت، أو كذلك الإذاعة من البث، وغير ذلك.

ولا يظهر لي ما يذكره بعض المعاصرين من انتشار بعض الفتن، أو بعض المحرمات كمسألة الصور ونحو ذلك؛ لأنها لا تشبه بالقطر، والأليق أن يحمل القطر على ما يسمى بالبث.

ظهور الخوارج

ومن علامات الساعة: ظهور الخوارج، وظهور الخوارج قد جاء عن رسول الله ﷺ في البخاري من حديث سويد بن غفلة عن علي

بن أبي طالب ، وقد تقدم الإشارة إليه، وفيه دليل على جواز المبادرة بقتال الخوارج من غير أن يبادروا بقتل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (وفي قتلهم أجر لمن قتلهم). قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله: وأجمع العلماء على مشروعية قتالهم.

وأما الواحد منهم إذا ظهر هل يبادر بقتله ولو لم يقاتل أم لا؟

اختلف العلماء في هذا، وهو روايتين في مذهب الإمام أحمد ، والصواب في ذلك أنه يبادر بقتله، وهذا الذي رجحه جماعة من العلماء كابن قدامة و ابن تيمية وغيره من العلماء.

تقارب الزمان

ومن علامات الساعة: تقارب الزمان، أي: أنه يقرب فيخرج عن المعتاد، إما على وجه الحقيقة، وإما على المعنى، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، ومن حديث سعيد عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان)، وقد جاء تفسيره عند الإمام مسلم عليه رحمة الله في صحيحه من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرةقال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كاحتراق السعفة من النخل)، يعني: أنها تمضي بسرعة، وهذا معناه قد يؤخذ من أن الساعة كاشتعال السعفة.

وهذا المعنى (كاشتعال السعفة) أي أنها سرعة المضي، قد يحمل على عدة معانٍ:

من هذه المعاني: رغد العيش، وقوة تلذذ الناس بالنعيم، حتى تمضي هذه الأيام والأعوام فلا يشعرون بها، بخلاف أيام الشقاء والبؤس، فإن اليوم يطول، وأما أيام الرخاء فإنها تمضي بسرعة، وقد أشار إلى هذا المعنى جماعة من العلماء كالخطابي وغيره.

وقال بعض العلماء: تقارب الزمان أي أنهم يختلطون فيتقاربون في الجهل والعلم، ويكون على السواء في هذا الباب.

والذي يظهر والله أعلم أن المراد بتقارب الزمان معانٍ منها: أن يتقارب من جهة المعنى، فمن جهة الاستمتاع واللذة تمضي الساعة بسرعة، وهذا مشاهد لدى الناس لكثرة النعيم والإغداق في العيش.

ومن هذه المعاني أن يتقارب الزمان من جهة المسافة، فالإنسان بدل أن يقضي في ذهابه إلى مكة أسابيع وأشهراً يرتحل، فإنه يأخذها في ساعات أو أقل من ذلك بالسفر، وهذا نوع من تقارب الزمان، وحينئذٍ يحمل عليه معنى وهو أن يتقارب البعيد، فتقرب المسافة، وهذا من المعاني.

وقد يكون المعنى على الحقيقة، وهذا قد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ لما ذكر الدجال قالوا: (سألناه: كم مكوثنا؟ قال: مكثه أربعين. قال: يوم كجمعة، ويوم كشهر، ويوم

كسنة، قالوا: يا رسول الله! اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاتنا هذه؟ قال: لا، اقدروا لها قدرها)، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (اقدروا لها قدرها) إشارة إلى تغير عجلة الزمن، وهو إما أن يكون تغير قانون ثبات الزمن في الأرض، وهو ما يسمى بالجاذبية الذي يرتبط به دوران الأرض حول نفسها، أو دورانها حول الشمس كما يقول الفلكيون، فتكون حينئذٍ الحركة بطيئة مما يطول الزمن، وحينئذٍ يقدر هذا بحساب الساعات، فقد يكون في اليوم الواحد يصلي الإنسان صلوات أيام متعددة؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تكفي صلاة واحدة)، مما يدل على أن تغير الزمن على الحقيقة.

ولعل هذا يسبق طلوع الشمس من مغربها، وهذا هو الظاهر لمعانٍ، منها: أن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى التكليف بالصلاة، فقال: (اقدروا لها قدرها)، وقد يشار إلى معنى آخر وهو أنه ظهر من الدول ما يطول فيها الزمن فيكون الليل سرمداً، ومن الدول من يكون فيها النهار سرمداً، ويشق عليهم من جهة الصلاة والصوم ونحو ذلك، فلا يرون الشمس ربما قريب السنة، ومنهم من لا يرى الليل كذلك، وهذا يختلف بحسب الفصول وتقلبها، وحينئذٍ يؤمرون بأن يقدر لها القدر.

وقد يكون هذا متضمناً لإشارة سعة الفتوحات، وبعد البلدان، وحينئذٍ يدخل هذا في باب التقارب بوجهين: التقارب الزمني، والتقارب المعنوي، وهذا محتمل أيضاً.

ظهور الأنفاق في مكة وتجديد بنيان الكعبة

ومن أشراط الساعة: الأنفاق التي ظهرت في مكة التي فتحت من عقود، وبعضها من عقود وما زالت إلى الآن، وقد جاء النص فيها صحيحاً عند ابن أبي شيبة في المصنف من حديث شعبة عن يعلى عن أبيه عن عبد الله بن عمروقال: (إذا رأيت مكة قد بعجت) البعج هو الشق والثقب، (قد بعجت كظائم) يعني: حفر وآبار، (ورأيت البنيان على الجبال، فاعلم أن الأمر قد أظلك). وإسناده صحيح، وهذا وإن كان موقوفاً فله حكم الرفع، والأنفاق ظهرت في قوله: (قد بعجت كظائم) يعني: أنفاق، كما فسره غير واحد من أئمة اللغة، وهو ظاهر في تفسير كلمة بعج، والكظائم هي الآبار والحفر؛ ولهذا لا تخلو جهة من جهات مكة من نفق يمر معه الناس ذهاباً وإياباً.

ومن العلامات المقترنة بهذا: علو البنيان، وهي الناطحات التي بنيت في مكة، والبنيان الذي كان على الجبال، كما قال هنا: (وإذا رأيت البناء على الجبال فاعلم أن الأمر قد أظلك) يعني: قد قربت الساعة، وأظل الإنسان الشيء أدركه، كالإنسان يستظل تحت شجرة، أي: أدركته الشجرة، واستظل بداره قد دخل فيها.

وقد يكون من أشراطها هدم الكعبة، وتجديد البنيان، وقد جاء هذا عند ابن أبي شيبة في المصنف من حديث شعبةعن يعلى عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: (كيف بكم إذا هدمتم الكعبة حجراً حجراً. قال: ونحن على الإسلام؟ قال: وأنتم على الإسلام، فتعيدونها على خير ما كانت)، و(على) يعني: على أحسن ما كانت، تشيدون بناءها على أفضل ما كان، مما يدل على أن نقض الكعبة وتجديدها بالبناء، وعلى هذه الهندسة الموجودة بنقضها حجراً حجراً، وتبنى على هذا.

ومعلوم أنهم في ما مضى أن الكعبة قد أزيلت من جوانب متعددة في سنوات متعددة، ولو لوحظ مسألة الإزالة على السنوات المتعددة لشمل جميع الأجزاء، وشيدت على أفضل بناء، ولا أعلم هل أزيلت إزالة تامة، وشيدت تشييداً تاماً، فهذا لا أظنه وقع، ولكن قد أزيلت من جهات متعددة في أزمنة متعددة حتى شمل ذلك البناء تاماً، وحتى أعيد على أحسن ما كان، وهذا بأيدي المسلمين، ولا يعني هذا أن هذا الفعل مذموم؛ ولهذا قال: (وأنتم على الإسلام) يعني (وتعيدونه على أمثل ما كان) أو (على أحسن ما كان بناء) وهذا من علامات الساعة.

تطاول الناس بالبنيان

ومن علامات وأمارات وأشراط الساعة: تطاول الناس بالبنيان، وفيه إشارة إلى الجزئية التي تقدم الإشارة إليها وهي البنيان الذي يعلو جبال مكة، أي: يفوقها، وربما كان عليها الناس يتطاولون بالبنيان، كما جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب (أن رسول الله ﷺ سأله جبريل، قال: وما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان)، وهذا ظهر، ومن المعلوم أن جزيرة العرب جل وأكثر سكانها هم من رعاة الشاة، فأصبح من هؤلاء ممن قد رعى الشاة يتطاول بالبنيان، وهذا مشاهد.

ويوجد الآن من كبار السن من سبق له الرعي وهو الآن يملك ناطحات سحاب، وهذا معلوم، ولو سأل عنه الإنسان لوجد من ذلك أعياناً، وإن لم يجد أعياناً لوجد من أصلابهم من يتطاول بالبنيان.

وقوله: (يتطاولون بالبنيان) أي يقول أحدهم: أنا أطول من فلان بناية؛ ولهذا ظهر في الأزمنة المتأخرة الموسوعات التي يدخلها: أطول الناس بناء في البلد الفلاني، أو أطول عمارة أو ناطحة سحاب في البلد هي الناطحة الفلانية، فأصبح الناس يتطاولون في البنيان، وهذا مصداقاً لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام: (يتطاولون في البنيان).

ولادة الأمة لربتها

ومن أشراطها (أن تلد الأمة ربتاها)، واختلف في المراد بهذا، فقيل: كثرة الجهاد في سبيل الله، وشيوعه، ويتبعه السبي، ويكثر الإماء، حتى توطئ الإماء فتلد سيدها، فيكون حراً.

وقيل: إنه يكثر العقوق في آخر الزمان، فيتسلط الرجل على أمه حتى تكون عنده كالأمة؛ ولهذا قال: (حتى تلد الأمة ربتها)، وكل ذلك محتمل.

والجهاد ظهر وشاع واشتهر في عصر أصحاب رسول الله ﷺ، وبعد ذلك في عصر التابعين وأتباع التابعين، وبعد ذلك فتحت البلدان، ثم اضمحل شيئاً فشيئاً حتى يزول، ويأتي الكلام على مسألة اختفاء الجهاد، ومحاربة الجهاد في بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ.

قتال الترك

ومن علامات الساعة في هذا ما جاء في بعض النصوص من قتال الترك، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلون أقواماً نعالهم الشعر، ووجوههم أو كأن ووجوههم المجان)، يعني: كالجلد السميك، وهذا قد وقع في قتال التتار، وهم المغول الذين كانوا في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله وقبله، الذين اجتاحوا بلاد الإسلام، وقد أطبق العلماء على هذا المعنى؛ أن القتال المقصود في هذا الحديث قد وقع.

خروج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى

ومن علامات الساعة: ظهور النار من الحجاز التي تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، وقد جاء في الصحيح من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى)، وبصرى هي بلاد حوران من الشام بجوار دمشق ، وهذه قد ظهرت في القرن السابع عام ستمائة وأربعة وخمسين للهجرة، كما ذكره أبو شامة و النووي وغيرهما.

قال أبو شامة عليه رحمة الله وهو ممن شهد ذلك: خرجت نار في حرة المدينة، عرضها أربعة أميال، ترى من مسيرة شهر، يستضيء بها المسافرون إلى تيماء في طريقهم، تذيب الصخر حتى يصبح بعد ذلك كالفحم. ولعل هذا ما يسمى بثوران البراكين، وإذا كانت هذه النار يستضيء بها المسافرون ليلاً إلى تيماء، وبقية الشهر كاملاً على هذه الحال، وعرضها أربعة أميال فهذا دليل على كبرها وقوة اشتعالها، وقد جزم العلماء العارفون بأن هذه ظهرت.

وهذه غير النار التي تظهر في آخر الزمان التي تضيء وتحشر الناس إلى أرض المحشر، وأرض المحشر هي الشام؛ ولهذا قال الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [الحشر:2]، وهي أرض الشام، كما جاء مفسراً عن غير واحد كعبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى و عكرمة و قتادة وغيرهم، وقال به جماعة من المحققين كشيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله، وقد روى الإمام مسلم في الصحيح من حديث عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يحشر الناس ثلاث طرائق رغبة ورهبة: رجلان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ثم تحشرهم نار إلى أرض المحشر، تصبح معهم حيث يصبحون، وتقيل معهم حيث يقيلون، وتمسي معهم حيث يمسون، وتبيت معهم حيث يبيتون)، مما يدل على أن النار تتبعهم شيئاً فشيئاً، فيذهبون رغبة ورهبة، حتى أن منهم من يريد المسارعة فعشرة يكون على بعير واحد، يريدون بذلك الوصول إلى أرض المحشر وهي بلاد الشام، فهذه النار تختلف عن النار الأولى.

بهذا القدر نكتفي، ونرجئ ما تبقى إلى المجلس القادم بإذن الله تعالى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

التشنيع على صلاح الدين الأيوبي بانتمائه إلى الأشعرية

السؤال: هناك من يتكلم على صلاح الدين الأيوبي ويشنعون عليه، ويقولون: أنه أشعري.

الجواب: هو عقيدته أشعرية مما لا ريب في ذلك، لكن من الجهل أن ينظر إلى هذا الباب، ولا ينظر أن صلاح الدين الأيوبي عليه رحمة الله نشر الأشعرية على أنقاض الفاطمية الوثنية، الذين هم في عداد الزنادقة، فأقام هذه على أنقاض تلك، ولا شك أنهم أقرب إلى الحق، وأقل خطأً وباطلاً بكثير من الفاطميين العبيديين، وهذا ينبغي أن ينظر إليه، وهم في دائرة الإسلام بالاتفاق، ويكفيه منقبة في ذلك أن فتح الله جل وعلا على يديه بيت المقدس، ومن أراد أن ينظر إلى حال رجل فلينظر لها من جوانب متعددة، ومن أراد أن ينقد شخصاً فلينقده من جهة سابقة أمره وآخرته، وإذا نقده فلينظر إلى خليفته لو لم يكن موجوداً، ولا شك أن خليفة صلاح الدين لو لم يكن موجوداً هم الزنادقة من العبيديين وغيرهم؛ ولهذا أزال دولتهم، ونشر الإسلام مع ما هم فيه من خطأ في أبواب الأسماء والصفات وشيء من مسائل الإيمان.

الكلام على الفتنة التي وقعت بين الصحابة وأمارات الساعة الواردة فيها

السؤال: هل يجوز الكلام عن الفتنة التي حصلت بين الصحابة؟ وهل هي من علامات الساعة؟

الجواب: الفتنة التي تقع بين أصحاب رسول الله ﷺ تقدم الكلام عليها، وهي فتنة، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة ألا يخاض في تفاصيلها، والخوض في التفاصيل مجلبة للحقد والغل، وقل من يتعمق في هذه المسائل ويخوض فيها من عامة الناس إلا ويقع في الزلل والخطأ، ويقع في إتيان بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كان يندرج فيها بعض العلامات التي تكلم عليها رسول الله ﷺ، ومنها نباح كلاب الحوأب على عائشة ، وقد جاء هذا في المسند والسنن وعند الطبراني وغيرهم من حديث قيس بن أبي حازم عن عائشة عليها رضوان الله تعالى عن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها: (كيف بإحداكن – يعني أمهات المؤمنين – إذا نبحت عليها كلاب الحوأب. قالت عائشة : يا رسول الله! وما الذي يذهب بنا إلى الحوأب؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ما أظنه إلا أنت)، فلما وقعت الفتنة في زمن أواخر الخلفاء الراشدين في خلافة علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى، لما وقعت الفتنة بعد مقتل عثمان ، أتوا إلى عائشة عليها رضوان الله تعالى قالوا: (أصلحي بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم قد اقتتلوا). فذهبت بعد لأواء، فلما كانت في الطريق سمعت الكلاب تنبح، فقالت: (ما هذا الماء؟ فقالوا: هذه بلدة يقال لها الحوأب، فبكت عليها رضوان الله تعالى حتى كادت أن تسقط من راحلتها، فقالت: سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول كذا وكذا)، فكان معها طلحة و الزبير ، فقال لها الزبير: (لعل الله عز وجل يصلح بك بين فئتين من المسلمين)، وجاء في تتمة الحديث عند الإمام أحمد قال: (يقتل عن يمينك أناس كثير، وعن يسارك أناس كثير)، ووقع ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام.

دلالة قوله في الحديث: (يكون في آخر الزمان)

السؤال: إذا جاء في بعض الأحاديث: يكون في آخر الزمان كذا، فهل هذا من علامات الساعة؟

الجواب: نعم من علامات الساعة.

الدرس الثالث

تتعاظم أشراط الساعة الصغرى بتعاظم آثارها واستمرارها، ومن الأشراط التي وقعت ولا زال أثرها إلى يومنا هذا: ظهور الدجل والكذب، وشيوع الخير ورغد العيش في الأرض، وفشو القتل بين أهل الإسلام، وظهور أمراء الجور والظلم.

ظهور الدجل والكذب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد تكلمنا فيما سبق على جملة من أعلام الساعة وأشراطها، ونكمل شيئاً من ذلك أيضاً.

ومن أشراط الساعة: ظهور الدجل والكذب، وعلى الأخص على رسول الله ﷺ، كما جاء ذلك عن رسول الله في جملة من الأحاديث، منها ما جاء في الصحيح من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يظهر دجالون كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي)، وهؤلاء قد ظهروا.

وقد ظهر جملة منهم في زمن رسول الله ﷺ، ويستفاد من هذا أنه إذا تجرأ الكاذب على رسول الله ﷺ فإنه من باب أولى يتجرأ على من هو دونه، وبهذا يعلم أن انتشار الكذب في الناس من الخديعة، وشهادة الزور، وكتمان الحق، ورمي الناس بالباطل، والقذف، وغير ذلك، داخل من جهة الأصل تحت هذا العموم.

وتقدم معنا أن ما دل الدليل عليه أنه من أشراط الساعة وكان من المغلظات فإنه يدخل فيه ما كان دونه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ جملة من أشراط الساعة التي ربما تندرج حكماً تحت هذا، منها ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من ظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وذهاب الأمانة، وهذا لا يمكن أن يظهر في الناس من يفتري على النبي عليه الصلاة والسلام أنه بعده، أو مجدد لما اندثر من ملته عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يقبل أو يظهر في الناس إلا وقد تفشى فيهم ما هو دون ذلك من الكذب بين الناس والخديعة، وشهادة الزور، وكتمان الحق وغير ذلك.

ويتبع هذا جملة من المسائل أيضاً التي ربما لا تتعلق ببابنا هذا، ولكن الأصل المتقرر والذي ينبغي أن يشار إليه هو أنه إذا دل الدليل على أمر معظم فيندرج تحته من أشراط الساعة من جهة المعنى ما هو دونه، كما تقدم الإشارة إلى مسألة استحلال الحر

والحرير والخمر والمعازف؛ وذلك أنه يدخل تحتها إباحة ما دونها مما ليس من القطعيات من مواضع الخلاف كما تقدم الإشارة إليه في جملة من المواضع.

حرب الجهاد والمجاهدين وصدهم عن سبيل الله

ومن علامات الساعة وأشراطها: حرب الجهاد والمجاهدين وصدهم عن سبيل الله، وقد دل الدليل كما في صحيح الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال قوم يقاتلون في سبيل الله ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)، وهذا قد جاء من حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ.

بقاء الجهاد وديمومته إلى قيام الساعة

والحديث السابق متضمن لمعنى مهم جداً، وهو: أن الجهاد باقٍ إلى قيام الساعة، ولا يمكن أن يخلو عصر من العصور، ويظهر هذا في قوله: (ما يزال) أو (لا يزال) كما جاء في بعض الروايات، وهذا يفيد الديمومة على كل حال، وهل هو في كل بلد؟ يقال: إن النص ظاهر في الدوام في كل عصر، بخلاف البلدان، فقد يندثر ولا يوجد في بلد، وإنما يوجد في بلد آخر بحسب الداعي، وهذا يظهر من قوله عليه الصلاة والسلام: (ما يزال الجهاد قائماً).

وجاء في رواية: (حلواً خضراً)، فقد روى ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق من حديث عباد بن كثير عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الجهاد حلواً خضراً ما نزل القطر من السماء، ونبت النبات من الأرض، ويظهر أقوام من المشرق يقولون: لا جهاد، وإن الجهاد قائم إلى قيام الساعة، أولئك شرار الخلق، فرباط يوم في سبيل الله خير من إعتاق ألف رقبة من ولد إسماعيل)، وقد جاء عن رسول الله ﷺ ما يعضد هذا الخبر، وإن كان في إسناد الأول ضعف، فإنه قد تفرد به من هذا الوجه عباد بن كثير عن يزيد الرقاشي ، وكلاهما مضعف، لكن قد روى أبو عمرو الداني في كتابه الفتن من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه مرسلاً عن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال الجهاد حلواً خضراً ما نزل القطر من السماء، وإنه يأتي زمان يقول قراء فيه: لا جهاد. وثمة جهاد، قال: فقلنا: يا رسول الله! وهل ثمة من يقول ذلك؟ قال: نعم، من عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).

وفي هذا جملة من الفوائد:

الفائدة الأولى: ما يتعلق بديمومة الجهاد وبقائه إلى قيام الساعة، وأنه لا يمكن أن يندثر من الأزمنة، وأنه قد يندثر من بلد بحسب داعي الحاجة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى فائدة تتعلق بهذا، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قد جاء عنه النص عاماً كما في الصحيح في غير هذا السياق، قال: (لا يضرهم من خذلهم)، إشارة إلى وجود من يخذل ومن يقوم بأمر الله سبحانه وتعالى في مثل هذا.

الفائدة الثانية: أن من قام بأمر الله جل وعلا فإن ذلك لا يضره وجود الخذلان مع وجوده، وهذا دليل على النص السابق الذي تقدم أنه (ما يزال قوم يقاتلون في سبيل الله حتى تقوم الساعة)، فوجود الخذلان لا يضر ولكنه قد ينقص، ولكن ديمومة الجهاد باقية إلى قيام الساعة.

الركون إلى رغد العيش عند محاربة الجهاد

ومن الفوائد المتعلقة بهذا الخبر أن مسألة صد الجهاد وعدوان أعداء الله سبحانه وتعالى لازمة لعدة مسائل:

المسألة الأولى: الركون إلى رغد العيش، وهذا قد تقدم الإشارة إليه، وهو من لوازم حرب الجهاد بأنواعه، سواء كان جهاد اللسان أو جهاد السنان، ولازم ذلك تمكن رغد العيش في الناس، وقد جاءت جملة من الأخبار عن رسول الله ﷺ على سبيل الاستقلال ما يشير إلى هذه اللوازم، فإذا تمكن الأمر من الناس كالشح المطاع، والهوى المتبع، والمال واستفاضته في الناس، فإنه حينئذٍ يقوم الناس في رد هذه الأمور طبعاً باستدامة رغد العيش.

وقد تقدم الإشارة إلى هذا فيما جاء عن رسول الله ﷺ في البخاري من حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً)، وهذا فيه إشارة إلى استفاضة المال في الناس، وفيه إشارة أيضاً إلى ما تقدم الإشارة إليه أن الإنسان يأخذ المال حتى لا يشعر من أي باب أخذ من حلال أو من حرام، وقد جاء النص في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: (ليأتين على الناس زمان لا يأبه الرجل أخذ المال من حلال أو من حرام)، ويأتي الكلام عليه، فإذا استحكم في المجتمع حب المال، والأثرة، وكراهية الموت، وحب الدنيا، فإنه يلزم من ذلك الطمع في الحياة، والعيش والاستقرار فيها، ولازم هذا كراهة القتال في سبيل الله، وخذلان من يجاهد في سبيل الله عن ماله وعرضه ودينه، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ حينما قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)، ويأتي الإشارة إليه.

واستفاضة المال قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام كما تقدم الإشارة إليه، وأخذ المال قد يكون من ثمار ذلك، وهو أن الإنسان إذا أخذ المال من أي باب من أبوابه سواء كان حلالاً أو حراماً ففيه إشارة إلى ضعف الإيمان في قلب الإنسان، وأما إذا كان يتحرى الحلال فإنه في الأغلب لا يطمع في صد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو جهاد السنان الذي جعل الله عز وجل فيه البركة في هذه الأرض.

نزول القطر وظهور النبات من الأرض ببقاء الجهاد

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى علة لطيفة في ديمومة الجهاد بقوله: (ما يزال الجهاد حلواً خضراً ما نزل القطر من السماء، وظهر النبات من الأرض)، فربط ذلك بهذا الوصف، في إشارة إلى أن الناس يرزقون الخير بهذا، ويغدق عليهم النعيم بمثل هذا السبب، والامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى.

وثمة أمران يرزق الله جل وعلا بسببهما الخير والرزق، وينزل القطر من السماء والنبات من الأرض:

أولهما: على سبيل الاستدراج، فإن الله عز وجل يستدرج من بغى وتعدى حتى إذا أخذه لم يفلته، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك الخبر: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

ثانيهما: بسبب الخير والجهاد، ومجالدة أعداء الله سبحانه وتعالى سواء من الكفرة أو من المنافقين، فإن من ثمار ذلك التمكين في الأرض، وأن يجعل الله عز وجل للأمة المكنة، ومن أثر تلك المكنة أن يرزق الله الأمة ثمار تلك التمكين، وهو خيرات هذه الأرض وجبايتها، وكذلك حكم الناس وإشاعة العدل فيهم، فإذا ظهر هذا الأمر في الناس فإنه حينئذٍ دليل على وجود مسبب ذلك، وهو إقامة حدود الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض.

تسلط الأعداء والصد عن كلمة الحق والجهاد

المسألة الثانية: أن الناس إذا صدوا كلمة الحق، وإظهار الجهاد في سبيل الله، وخذلوا خير الأرض في زمانهم، سلط الله عز وجل عليهم عدواً، سواء كان من بينهم أو من غيرهم، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قال: (إذا تبايعتم بالعينة, وأخذتم أذناب البقر, ورضيتم بالزرع, وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم عدواً).

وقوله عليه الصلاة والسلام: (سلط الله عليكم عدواً) إشارة إلى سبب التسليط، وهو الدعة، وأخذ المال من حيث يأتي من غير تمييز لحلال ولا حرام.

وقوله: (ورضيتم بالزرع) إشارة إلى رغد العيش، وإشارة أيضاً إلى الخيرات التي يفتحها الله عز وجل على الأمة في الأزمنة المتأخرة التي لم تكن في السالف، وهذا من أشراط الساعة أيضاً.

وقوله: (وتركتم الجهاد في سبيل الله) معنى الترك أن يترك على سبيل العموم مع وجوده على سبيل الأفراد، فسلط الله عليكم من الذل ما لا ينزعه الله عز وجل عنكم حتى تعودوا إلى دينكم، وفيه إشارة إلى نزع الإيمان من قلوب كثير من الناس بسبب هذا الأمر.

شيوع الخير ورغد العيش في الأرض

وقد يكون من ثمار ذلك شرط من أشراط الساعة وهو: شيوع الخير ورغد العيش في الأرض، وهذا قد أخبر عنه عليه الصلاة والسلام كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً كما كانت)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (تعود) إشارة إلى كونها في السابق على هذه الحال، وقد نص على تأكيد ذلك في بعض الروايات حيث قال: (كما كانت).

الحكمة من تقلب المواسم

وهنا إشارة إلى مسألة مهمة، وهي أن الله عز وجل يفعل ذلك على سبيل الاستدراج للأمة، أو على سبيل التذكير بزوال الدنيا، والعاقل يتذكر من أمثال تقلب الأحوال، وتغير الزمان، وتقلب المواسم بزواله من هذه الدنيا، وكذلك أحوال الأمم السالفة.

وأما الذي علق قلبه بالدنيا فإنه ينصرف إلى إشغال قلبه بلذائذ الدنيا ومتعها، ومن ذلك الميل إلى رغد العيش، وقد أشار إلى هذا المعنى النبي عليه الصلاة والسلام في خبر آخر قد رواه البخاري و مسلم من حديث سعد الطائي عن محل بن خليفة عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لئن عشتَ) ، وجاء في رواية: (لترين الظعينة تسير من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله)، ومعنى الظعينة: هي المرأة التي تركب الراحلة، فتسير من الشام إلى مكة لا تخاف إلا الله.

وقال بعض العلماء: إن المراد بهذا هو ما يكون في آخر الزمان في زمن المهدي، وقد يكون قبل ذلك.

والأظهر والله أعلم أنه قبل ذلك، وهذا مشاهد في الأزمنة المتأخرة أن المرأة تستطيع أن تسير لوحدها حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله، وفي هذا إشارة إلى شيوع الأمن ومنة الله سبحانه وتعالى على خلقه، وفيه إشارة إلى مسألة رغد العيش، فإن تعدي الناس على حرمات الآخرين بالسطو والسلب إشارة إلى وجود الجوع والفقر والحاجة والفاقة والمسكنة، وهذا انتفى مع شدة الخير في الناس، مما يدل على أن انتشار المال ورغد العيش مع الأمن متلازمة في زمن واحد، وإلا فإن كثيراً من الناس يسطون على قوافل الحجيج وعلى المسافرين، فيكونون من جملة قطاع الطريق إذا كان هناك خوف من الفقر والمسكنة والجوع ونحو ذلك، وينتشر حينئذٍ في الناس الخوف ولوازم ذلك كله.

ومن نظر إلى علامات الساعة استطاع أن يجمع جملة منها من العشر والعشرين تحت شرط واحد، فيكون بينها تلازم، وقد تقدم الإشارة إلى هذه المسألة.

الحكمة من اختلاف أحوال الإنسان في الزمن الواحد

ومن الإشارات في هذا أن ما يرد في كلام النبي عليه الصلاة والسلام من اختلاف الحال ليس من التضاد، وإنما لتقلب الزمن وسرعة تغير الحال.

وتغير الحال هي من الحكم اللطيفة التي يجعلها الله سبحانه وتعالى في الأرض حتى يتذكر الإنسان انقلاب حاله، ويتذكر مآله، وأن مرده إلى الله سبحانه وتعالى، فالله جل وعلا جعل تغير الإنسان في ساعته وفي يومه، فيتقلب الإنسان في الساعة الواحدة من فرح إلى ترح، ومن صحة إلى مرض، وفي يومه من نهار إلى ليل، ومن صحة إلى سقم، ويتقلب أيضاً في أيامه بتغير أسمائها، وكذلك في فصوله لأمور وحكم عديدة، من أظهرها أن يتذكر الإنسان حاله كما تقدم الإشارة إليه، وفيها إشارة إلى ضعف الإنسان وملله من ديمومة الحال، فإن الإنسان لو كان الليل سرمداً عليه إلى قيام الساعة تضجر وربما تمنى الموت، ولو كان الشتاء عليه سرمداً لتمنى زواله؛ ولهذا قلب الله حاله من حال إلى حال، وفي هذا يقول الشاعر مشيراً إلى هذا المعنى:

يحب المرء في الصيف الشتاء وإذا جاء الشتاء أنكره

لا بذا يرضى ولا يرضى بذا قتل الإنسان ما أكفره

لا يرضى الإنسان بغنى يحب الحاجة؛ ولهذا كم من أصحاب الغنى يتقشف في بعض أوقاته، وإذا جاءه شتاء تمنى الصيف، وإذا جاءه صيف تمنى الشتاء؛ ولهذا قلب الله سبحانه وتعالى تلك الأحوال إشارة إلى فطرة الإنسان وضعفه.

نزع الأمانة من قلوب الناس

ومن أشراط الساعة المتعلقة والتي قد يكون لها صلة في هذا الباب: نزع الأمانة من قلوب الناس.

ونزع الأمانة من قلوب الناس فيه إشارة إلى الشح المطاع، والهوى المتبع، والطمع والجشع.

من ثمار نزع الأمانة

ومن ثمار ذلك ما سلف من قطيعة الأرحام، وتسليم الخاصة، وقد جاء عن رسول الله ﷺ إشارة إلى تقلب الإنسان في يومه وليلته من أمين إلى خائن، ومن مؤمن إلى كافر في يوم وليلة.

وتقدم معنا مسألة التقلب بين الإيمان والكفر، فإن الرجل يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، أو يصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا، وقد جاء عند البخاري من حديث زيد بن وهب عن حذيفة بن اليمان قال: (حدثنا رسول الله ﷺ بأمرين: أما الأمر الأول: فهو الأمانة أنزلها الله في جذر قلوب رجال، وأما الآخر فحدثنا أن الرجل ينام فتزول الأمانة من قلبه)، وهذا فيه إشارة إلى أن الإنسان تزول الأمانة من قلبه لا بسبب يدركه، وإنما بسبب لو تفحصه وتأمله وجد أنه له علاقة بحرمات الله كمعاصي السر وغير ذلك، فإن الله عز وجل يجعلها من أسباب تقلب الإنسان وردته وانتكاسه.

وتقدم الإشارة معنا أن الإنسان إذا كان صاحب إيمان وصاحب علم عصمه الله جل وعلا من الردة والانتكاسة، وأما إذا كان من أصحاب العلم وليس من أصحاب الديانة والإيمان والعبادة فإنه يتقلب من حال إلى حال، من أمين إلى خائن بحسب مطامع الدنيا.

لوازم ضياع الأمانة

وأشار في الحديث إلى الأمانة، ولها لوازم متعددة؛ لأنها أصل العدل في الناس، فالسلطان إن لم يكن أميناً جار وبغى وظلم، والعالم إذا لم يكن أميناً شاع في فتاوى الجهالة والزور ونشر الجهالات في الناس، وأواسط الناس وعامتهم ودهمائهم إذا نزعت الأمانة من قلوبهم كتموا الشهادة، وأظهروا شهادة الزور، وكذبوا وخانوا، وعقوا وقطعوا الأرحام، وسعوا في الأرض فساداً.

وفي الإشارة إلى نزع الأمانة لازم لكثير من أشراط الساعة؛ لأن الأمانة إذا نزعت من قلوب الناس انتشر ما عداها من أنواع الخيانة، وأظهر ذلك ما جعله رسول الله ﷺ من علامات النفاق وهو الكذب، والغدر، والمبالغة في الفجور عند الخصومة، فإن هذا يشتهر عند من نزع الله جل وعلا منه الأمانة.

فشو القتل بين أهل الإسلام

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: فشو القتل بين أهل الإسلام، والدليل على ذلك ما رواه البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: (والله لا تقوم الساعة حتى لا يدري القاتل فيما قَتل، والمقتول فيم قُتل، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: الهرج، والقاتل والمقتول في النار). وفي هذا جملة من الفوائد واللطائف:

استنباط خاطئ حول فشو القتل قبل قيام الساعة

كثير ممن يتكلم عن أشراط الساعة يشير إلى كثرة القتل وفشوه في الناس، ثم يستنبط جملة من المسائل منها ما يحدث في الأزمنة المتأخرة من الحرب العالمية الثانية وكثرة القتل، والحرب العالمية الأولى وما حدث من ملايين من القتل، وليس المراد ذلك، والمراد من هذا هو القتل بين أهل الإسلام، والدليل على ذلك في نفس الخبر؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (القاتل والمقتول في النار)، والكفرة الأصل فيهم أنهم في النار، والإشارة هنا إلى قتل أهل الإسلام بعضهم لبعض؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)، وهذا هو المراد هنا؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يدري القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيما قتل)، أي: لأي سبب قتل وسفك دمه.

تسلط سفاكي الدماء على الناس

وفي ذلك إشارة إلى تسلط قادة على الناس يقودونهم لسفك دماء إخوانهم، وهذا ظاهر؛ لأن القاتل لا يدري لماذا يذهب؟ والمقتول لا يدري، والعلة في ذلك إما أنه مأجور، وقد جاء في ذلك أن يكون الغزو أجراً، وفيه علة ولا نورده؛ لأنه ليس على شرطنا، وهذا يظهر من كلام النبي عليه الصلاة والسلام هنا: (لا يدري القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيم قتل)، وفيه إشارة إلى أنهم يقاتلون من أجل مطامع بلا أهداف ولا غايات، أو أنهم يجبرون على ذلك.

وقد حدث جملة من هذه المقاتل التي حدثت في كثير من الأزمنة القريبة بين المسلمين، فقتل من ذلك مئات الآلاف المسلمين، ولا يدري القاتل لماذا قتل؟ ولا المقتول لماذا يقتل؟ لأن الحروب هي حروب مطامع أسياد وقادة، أو ثروات ونحو ذلك، والذين يُقتلون ويقتلون لهم المال.

وقت ظهور الهرج بين المسلمين

والذي يظهر أن مثل هذا الخبر الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضع، وجاء مجملاً في جملة من المواضع أنه

يظهر الهرج في آخر الزمان، والمراد بذلك القتل، وجاء على سبيل الإجمال المراد به هرج أهل الإسلام.

ومن القرائن التي تؤكد أيضاً على أن المراد به هو قتل أهل الإسلام لبعضهم وليس المراد الكفار: أن كثيراً من أشراط الساعة وجل أشراط الساعة وقائعها في بلاد الإسلام.

ولا يكاد يوجد شيء في بلاد الكفر متمحض ليس للمسلمين فيه صلة، وإما أن يكون مشتركاً بين المسلمين والكفار، كمسألة الغزو والقتل وهدم الكعبة من الجيش الذي يريد الكعبة، والقتال بين المسلمين واليهود، أو ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى يكون الروم أكثر الناس) يعني: أكثرهم عدداً، وهذا ظاهر.

والتعليل الذي أظنه وأفهمه من هذا الحديث في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (حتى يكون الروم أكثر الناس) لا أعلم من أشار إليه، ولكن هو اجتهاد إن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي، هو انتشار اللسان الأعجمي، فالعربي هو من تكلم العربية ولو أكان أعجمياً؛ ولهذا العرب تقول: الأعرابي من سكن البادية ولو كان أعجمياً، والأعجمي من تكلم الأعجمية ولو كان عربياً؛ في إشارة إلى تعلم الانجليزية وفشوها في الناس، وبه نعلم أن ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: (الروم أكثر الناس) هم ليسوا أكثر الناس عدداً، وأقل الناس محاربة لسنن الله الكونية من سنة التكاثر الفطري يحاربون ذلك، ولكن فشت لغتهم، فأخذها سلوكاً كثير من العرب والعجم، فتكلم بها بسبب الاستعمار، أو الغزو الفكري كثير من الناس، وأصبحوا روماً، وإن كان أصلهم لا يرجع إلى ذلك العرق؛ ولهذا المتأصل عند العرب أنه يكون الرجل عربياً إذا تكلم وانغمس معهم وتكلم العربية، ويكون الرجل أعجمياً إذا انغمس مع العجم وتكلم الأعجمية، وهذا ظاهر، ومن يتكلم في أشراط الساعة يشير إلى مسألة العدد، وليس هذا بظاهر.

ظهور أمراء الجور والظلم

ومن المسائل المتعلقة بأشراط الساعة: ظهور أمراء ظلمة، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ كما رواه الإمام مسلم من حديث أم سلمة قال: (لا تقوم الساعة حتى يظهر أمراء تعرف منهم وتنكر، فمن عرف فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة)، وفي هذا جملة من المسائل:

ظهور البغي والجور بكثرة في الأزمنة المتأخرة

المسألة الأولى: أن ظهور البغي وجور السلطان يكثر في الأزمنة المتأخرة أكثر من الأزمنة المتقدمة، وهذا جاء تفسيره في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك حينما أتوا إليه وشكوا إليه ظلم الحجاج ، فقال أنس بن مالك قال: (اصبروا فإني سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم).

اختفاء العلماء والقائمين بالحق

وثمة تلازم بين هذه المسألة ومسألة أخرى قد تقدم الإشارة إليها، وهي مسألة اختفاء العلماء والقائمين بالحق، فإذا اختفى العلماء والقائمون بالحق ظهر جور السلطان وطغى، وتفسير ذلك جاء عند ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها من حديث عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى يقول: (لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه، لا أقول: عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهابكم ذهاب علمائكم).

وقول عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى هنا: (لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه، لا أقول: عام أمطر من عام)، يعني: أن المقياس بالشر وانتشاره، وليس بجور السلطان، ولا بنزول القطر من السماء، ولا بالقحط، (ولا عام أخصب من عام) أي: بظهور الربيع في الأرض، (ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهابكم ذهاب علمائكم)، وهذا فيه إشارة إلى أن خيرية السلاطين لا تدل على خيرية الشعوب، فقد يكون ثمة سلطان باغٍ، والشعب فيه خير عظيم، لكن ما وجد العلماء؛ لأنهم يقومون بالحق، وقد يوجد في شعب ويتولى أمره سلطان عادل، ويكون حينئذٍ العلماء لا يظهرون الحق لشهوات ومطامع في أنفسهم، وينتشر الجهل في الناس، والأولى هي أكثر من الثانية، والثانية أندر، وهذا من شاهده وقرأ التاريخ وجد له أمثلة كثيرة، هذا فيما يتعلق بمسألة المقياس.

نسبة المنكر والمعروف من أمراء الجور

وأما صفة هذا الخبر الذي جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام: (تعرف منهم وتنكر) أي: أنهم يقولون من الخير ويقولون من الشر، والواجب على من كان تحت ولايتهم أن يقوم بأمرين:

الأمر الأول: المعروف أن يأتي بالمعروف، وهذا فيه أدنى درجات السلامة، وهو أن يقوم الإنسان بالمعروف.

الأمر الثاني: ألا يظهر المنكر؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (فمن عرِف)، وجاء في بعض الألفاظ (فمن عرّف) يعني: عرف المعروف ولم ينكر المنكر خشية من السطوة (فقد برئ) يعني: أبرأ ذمته، (ومن أنكر فقد سلم) أي: من أنكر على السلطان شره فقد سلم من عقاب الله سبحانه وتعالى، وهذه هي المرتبة العليا.

الخروج على أئمة الجور ما أقاموا الصلاة

قالوا: (أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة)، وهذا فيه مسألة مهمة: وهو أنه لا يجوز الخروج على أئمة الجور ما أقاموا الصلاة، وإقامة الصلاة أشار إلى إقامتها، واستثني من ذلك أمر وهو الزمن، فإذا أقيمت على الهيئة التي جاءت عن رسول الله ﷺ بقوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي) ولو في غير زمانها؛ وجب طاعتهم من غير خروج، وأداؤها معهم، وأداؤها في الدور.

وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام تفسير ذلك كما في صحيح مسلم من حديث أبي ذر أن النبي عليه الصلاة والسلام

قال: (يأتي أمراء يصلون أو يؤدون الصلاة على غير وقتها)، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالصلاة معهم، وأداء الصلاة في وقتها. ومع أن هذا الأمر من الجور والظلم وكأن الإنسان لم يصل إلا أن إظهار هذه الشعيرة من المطالب التي يطلب من السلطان أداؤها.

تقدم السلطان لإمامة المصلين

وقوله هنا: (ما أقاموا فيكم الصلاة) فيه إشارة إلى أهمية تقدم السلطان في إمامة المصلين، وهذا من الأمور والمسائل المهجورة في كثير من الأزمنة المتأخرة، ومن مهمات السلطان: الإمامة في الصلاة، وخطبة الجمعة، وصلاة العيدين، والاستسقاء، كما كان على ذلك الخلفاء والأمراء على مر العصور إلى أزمنة متأخرة، بل حتى إلى أيام الدولة العثمانية، ثم بعد ذلك ظهر الانشقاق البين بين شقي ولاة الأمر، وولاة الأمر على صنفين في ظاهر الكتاب والسنة: أمراء وعلماء، وهم عند الإطلاق يشملون العالم الذي يقتضى أن يكون أميراً، فلما وقع انشقاق بين هذين المعنيين استشكل كثير من الناس الإطلاقات الواردة في كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأن الأصل في السلطان أن يكون عالماً، والأصل فيه أن يكون قائداً في العبادات كما أنه من القواد في شئون الدنيا، وهذا ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه من الخلفاء والأمراء.

تولية من لا يستحق الولاية

ومن جملة أشراط الساعة التي قد تندرج تحت هذا المعنى: تولية من لا يستحق الولاية من الولايات الصغيرة والمسئوليات، وهي تبع لظلم وجور السلطان، وهذا من أشراط الساعة، ويظهر هذا في قول النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)، وهذا بين أن الأمر إذا أسند من لا يستحق ذلك فانتظر الساعة، ومعنى عدم الاستحقاق يكون بالتعيين في الولايات للقرابة، لمصالح المال، للجاه، وغير ذلك، وليس للأحقية علماً وسياسة وعقلاً، وبهذا يعلم أن هذا داخل تحت ذلك الأصل، وربما يتبع ذلك وضع الأخيار ورفع الأشرار، وقد جاء في ذلك جملة من الأخبار عن النبي عليه الصلاة والسلام عند الطبراني وغيره، ووضع الأخيار معناه أنهم لا يرفعون ويهمشون، ويرفع الأشرار ويبرزون في الناس، وهو تابع وهو من ثمار جور السلطان.

تعدي السلطان على الناس وحرماتهم

ومما يدخل في هذا ما أخبر فيه النبي عليه الصلاة والسلام من تعدي السلطان على حرمات الناس بالضرب والسطو والعدوان، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك بعض الروايات المتعلقة بالأعيان، وجاء فيها على وجه العموم.

ومن أمور الأعيان ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح من حديث ابن الزبير عن أمه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكون في قريش كذاب ومبير. فأما الكذاب فهو المختار ، وأما المبير –وهو الذي يسفك الدماء– فهو الحجاج)، وجاء إطلاق من غير تقييد فيما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح الإمام مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى يقوم أمراء معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس)، وهذا فيه إشارة إلى التسلط على عامة الناس بالضرب والتعدي عليهم. وفي هذا جملة من المعاني: منها

غياب العدل في الناس.

عدم تحكيم الشريعة في المجتمعات

ومن ثمارها أيضاً ظهور عدم تحكيم شريعة الله في كثير من المجتمعات، وإلا فأمثال هذه الظاهرة لو وجدت لاقتص للضعيف من القوي، وانتفاء القداسة عن ذلك المجتمع بنص الخبر كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام عند الطبراني قال: (لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع)، يعني: غير متلكئ، فإذا وجد ذلك دل على أن انتزاع القداسة من ذلك المجتمع وتلك الأمة بعدم تطبيقها لشرع الله، وهذا ظاهر في كثير من الدول التي تنتسب للإسلام، وتجعل دستورها الإسلام، ويظهر فيها العدوان والتسلط: تسلط على الدماء، تسلط على الأموال، انتشار الفواحش والبغي علانية، شرب الخمر في الشوارع وبيعها، وغير ذلك من إباحة المحرمات القطعية، وهذا فيه تسليط لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا من علامات الساعة التي ظهرت.

وفيه أيضاً أن الإنسان في مثل هذه الحال يصبر وهو مأجور، وحينما ساق النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، وسكت عن حق الانتقام فهذا دليل على أن الصبر في مثل هذا أفضل؛ لأن عدم الصبر ربما يورث انتقاماً وسفك دماء، وهو أشد وأخطر من ذلك.

ظهور الزنا والتعري في المجتمعات

ومن علامات الساعة وأشراطها: ظهور الزنا والتعري في المجتمعات، وتفسخ النساء، وهذا قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح الإمام مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (صنفان من أمتي لم أرهما: نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا).

وفي هذا إشارة إلى جملة من المعاني:

ظهور التعري في الأخلاق مع تعري الأجساد

أولها: أن ظهور التعري في الأجساد دليل على ظهور التعري في الأخلاق، وهذا لازم، وقد جاء النص فيه في كلام رسول الله ﷺ في موضع آخر كما عند الترمذي وغيره من حديث عبد الله بن عمروقال: (لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الأرحام)، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (الفحش) بذاءة اللسان من القذف، وغير ذلك، والكلام البذيء السافل وهو تبع لذلك.

ويجعل كثير من العلماء ظهور الفحش أمراً مستقلاً عن مسألة التعري، وهي لازمة له، فلا يمكن لامرأة أن تتعرى في مجتمع إلا

وقد انتشر الفحش علانية أمام البصر، وإلا لو كان المجتمع قد أمسك لسانه عن الفحش والكلام الساقط لما وجد ذلك، فيعلم أن هذا من لوازمه، وبه يعلم أن انتشار الفحش سابق للتعري وهو سبيل إليه.

خطورة استحلال التعري والسفور

ثانياً: فيه إشارة إلى أن التعري وظهور السفور في الناس ليس المراد به ظهوراً فقط، وإنما المراد به الاستحلال، وهذا يلزم منه نفي الحجاب، وإباحة السفور، وأنه ليس من الدين، ودليل ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها)، وهذا الفعل ليس من المكفرات إلا إذا استحله الإنسان؛ لأنه من المحرمات القطعية، وإذا أحل الإنسان شيئاً قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة كفر، ومن ذلك إذا أنكر الحجاب بمفهومه العام بعيداً عن فروعه المختلف فيها فهذا كافر، وبه يعلم أن من قال: إن لباس المرأة على الإطلاق من حريتها، ولا علاقة له بالدين، تلبس ما شاءت، وتتعرى متى شاءت، أن هذا ردة وخروج عن دين الإسلام باتفاق العلماء؛ لأن ذلك إنكار لنص معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

وبه يعلم أن كثيراً من الدعوات التي يدعو إليها كثير ممن ينتسب إلى الفكر الإسلامي في زمننا، أو بعض الكتاب الجهلة المأجورين الذين يقولون: إن الحجاب من اللباس والزي والعادات والتقاليد، فهذه عبارة كفرية، والواجب أن يبين الحق لصاحبها وتقام عليه الحجة، فإن أبى كفر وارتد والعياذ بالله، ووجب على ولي أمر المسلمين أن يقيم عليه حد الردة؛ حتى لا ينتشر الفساد في الناس، وهذا قد يكون من لوازم ظهور الزنا، وقد تقدم الكلام عليه، وقد يكون بين هذا وذاك من التلازم، وهذا كما تقدم الإشارة هو مما يتعلق ببلاد الإسلام وليس في بلاد الكفر.

وكثير من الناس حينما ترد لديه هذه النصوص يقول: إنها وجدت في بلاد الغرب، وليس هذا المراد، لا التعري، ولا ظهور الزنا، ولا الخمر، ولا سائر أشراط الساعة، لا يقصد به الغرب إلا ما دل عليه الدليل أن المراد به الغرب، فيقال حينئذٍ: إنه على هذا التقييد، وإلا فالأصل فيه أن الأمر معلق بقيام الساعة، وقيام الساعة يهتم بها أهل الإيمان، وأما أهل الكفر فعليهم تقوم الساعة وهم شرار الخلق.

طلب العلم على الأصاغر

ومن علامات الساعة وأشراطها: طلب العلم على الأصاغر، وهذا قد رواه ابن المبارك في كتابه الزهد من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبي أمية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أمارات الساعة طلب العلم على الأصاغر). وقد سئل ابن المبارك عن الأصاغر؟ فقال: هم أهل البدع، وجاء في تفسير: ما الأصاغر؟ قال: الأصاغر هم الذين يقولون برأيهم، أما صغير يروي عن كبير فليس بصغير.

وهذا فيه جملة من المسائل:

لوازم طلب العلم على الأصاغر

أولها: الإشارة إلى وجود البدع وانتشارها في المتأخرين، حتى يلتبس على الطالب الحق، أو يلتبس على طالب العلم الطلب عند أهل الحق والعدل، أو عند أهل الابتداع، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكر الأمارات، والأصل في الأمارات أن تكون ظاهرة، فلا تكون قضية عين، يعني: طالب العلم يطلب العلم على مبتدع، لا، ليس المراد هذا، وإنما المراد هو تفشي هذا الأمر، وهذا من لوازمه ظهور الابتداع في الدين بسائر صنوفه وأنواعه، سواء ما يتعلق بالأصول أو ما يتعلق بالفروع.

ثانياً: انسياق كثير من طلاب العلم إلى طلب العلم عند المبتدعة والضلال، أو الذين يفتون بالرأي من غير نظر إلى دليل.

ثالثاً: أن الإنسان ينبغي وإن تقادم الزمن أن يعتني بالدليل؛ ولهذا قال ابن المبارك : (أما صغير يروي عن كبير فليس بصغير). يروي عن كبير، ما المراد بالكبير؟ المراد بالكبير هم خير القرون الصحابة، وقبل ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فالتابعين، فأتباع التابعين، فالأئمة المهديين من أئمة الإسلام وأعلامهم، وهكذا بحسب المسألة.

أخذ طالب العلم عن أهل البدع

وأما مسألة: الأخذ عن المبتدع فهل يسوغ لطالب العلم أن يأخذ عن مبتدع أم لا؟

هذه المسألة هي من مواضع الخلاف عند العلماء، وتحريرها يحتاج إلى بيان، وخلاصة ذلك أن النصوص عند النظر فيها في كلام العلماء في كتب علوم الحديث ومصطلحه وقواعده نجد أن العلماء يحذرون من الرواية عن المبتدع وحضور مجلسه، ونجد أن العلماء عند الحديث عن المبتدع يقولون: لا تجالسوهم ولا تخالطوهم ولا تآكلوهم، وإذا جمعنا ذلك إلى عمل الأئمة نجد أن الأئمة الكبار الذي يحذرون لهم شيء من المرويات عن بعض المبتدعة، ولازم ذلك أن نقول: إما أن هؤلاء الأئمة قصدوا أمراً غير المتبادر من التحذير المطلق، وإما أن يكون الأئمة قد تناقضوا في ظاهر قولهم، وإما أن يكون أحد قولهم ناسخ والآخر منسوخ، وهذا لا قائل به.

وأما النهي عن الأخذ عن المبتدعة بالإطلاق في كلام الأئمة عليهم رحمة الله فإن مرادهم بذلك حتى لا يرتفع المبتدع فيكثر سواده، هذا أمر، فإنه إذا كثر وارتفع عند الناس أخذ منه العامة الفتاوى في الدين، وإن كان طلاب العلم يأتون إليه لأخذ الأسانيد والمرويات، فالعامة يتأثرون بثقة من أخذ عنه، فيأخذون عنه الدين، ولا يعلمون أن طلاب العلم يأخذون منه الإسناد فيرتفع أمره، فيختلط حينئذٍ الحق بالباطل؛ ولهذا حذروا من ذلك.

ومن التعليلات أيضاً حتى لا يقرب طالب العلم من المبتدع فيشرب من بدعته من حيث لا يشعر، وذلك أن طالب العلم إذا قرب من مبتدع وأنس به وجلس إليه، وخاصة إذا اقترن ذلك بظهور عبادة من المبتدع والإكثار من الطاعة تأثر ببعض أقواله، وإن لم يتأثر وكان صاحب حجة التمس له العذر، أو جعل قوله من مسائل الخلاف، وهو محض خطأ دخل عليه في دينه، وكل ذلك من المواضع التي ينبغي أن يحترز فيها.

وخلاصة هذا الجمع بين كلام الأئمة عليهم رحمة الله تعالى في التحذير من الرواية عن المبتدع وبين مروياتهم عنهم، وذلك أنه إن تمكن إنسان من الأخذ عن المبتدع من غير رفعه، ومن غير التأثر ببدعته، ولا تكثير سواده عند الناس، ولا خدع العامة في ذلك أن ذلك سائغ؛ ولهذا وجد عند الإمام أحمد عليه رحمة الله، وهو ممن حذر في الرواية عن المبتدعة، جملة من الشيوخ من المرجئة، وله من رجاله أيضاً ممن يوصف بالقدر، وبشيء من الاعتزال، وبشيء من النصب، ووجد هذا في صحيحي البخاري و مسلم في بعض صنوف الابتداع كالتشيع، وبعض عقائد الخوارج ونحو ذلك، فدل على أن الأئمة عليهم رحمة الله لا يريدون ذلك بالإطلاق، وإنما يريدون ذلك بنحو هذه التقييدات.

إبراز المبتدعة في المجالس وإظهارهم في وسائل الإعلام

وعليه يعلم أن إبراز المبتدعة في المجالس، وإظهارهم في وسائل الإعلام مظهر القدوة أن هذا من لوازم أشراط الساعة، وهذا من لوازم ما جاء هنا في هذا الخبر في قوله: (أن يطلب العلم عند الأصاغر)، وهم أهل البدع أو أهل الرأي، وهذا دليل على شيوعه.

ومن أسباب الشيوع إظهار هؤلاء في موضع القدوة الحسنة ونحو ذلك، وهذا مما ينبغي أن يحذر منه؛ لأن الابتداع في الدين هو أعظم وأشد عند الله سبحانه وتعالى من المعاصي والذنوب؛ وذلك أن المعاصي يفعلها الإنسان من الوقوع في الفواحش، وأكل مال الغير، وهذه يدفعها شهوات، ويقر الإنسان بنفسه أنه فعل ذلك لشهوة، ويستغفر ويتوب، أو يطمع في إعادة الحقوق إلى أهلها، ولا يستطيع أن يقرر ذلك عند الناس، بخلاف الأمور التي هي لها صله في الدين، وبالأخص العقائد ممن يطوف على القبور، أو يجوز التوسل بالموتى، وسؤالهم من دون الله سبحانه وتعالى، وهذا لا شك أنه أمر خطير إن لم يكن من الشرك المحض في بعض الصور فهو من وسائله المفضية إلى الكفر والخروج من الملة.

تمني الموت عند اشتداد الفتن واستحكام الشر

ومن أشراط الساعة: تمني الرجل الموت، وجواز ذلك، لشدة ما ينزل في الأفراد من فتنة أو ضراء؛ وقد جاء في الصحيح من حديث مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بالقبر فيتمنى أن يكون مكانه)، وفي هذا إشارة إلى أن تمني الموت في بعض الأحيان جائز عند استحكام الشر واستغلاقه، وعند شدة الفتن والتباس الأمر، يعني: أن يدعو الإنسان أن يقبضه الله غير مفتون، وأن يكون مكان صاحب القبر.

وفيه أن هذا لا يناقض ما جاء عن رسول الله ﷺ: (لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به)، ومعنى هذا أن الإنسان مهما نزل به من ضر ينبغي ألا يدعو، ولكن قد يحمل ما جاء عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة هنا إلى الاستثناء لشدة الفتن واستحكام الشر، فإن الإنسان إذا كان لا يأمن على نفسه من الوقوع في الفتنة لا حرج عليه أن يتمنى الموت، وهذا من لوازم ظهور الفتن والشر في الناس والمجتمعات واستحكام ذلك، حيث لا يجد الإنسان حيلة في دفع الشر، ودفع البغي، ودفع العدوان عن الدين أو عن نفسه ونحو ذلك، حتى يتمنى مع ذلك الموت.

وفيه إشارة إلى استحكام الفتن ليس على المجتمعات فيبتلى الإنسان إن أراد، ولكنه يبتلى رغماً عنه؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (حتى يمر الرجل بالقبر)، يعني: الواحد من الناس، أي: أنه يتتبع بالفتنة والأذية والشر حتى يتمنى الأفراد الموت، وأن يكونوا كذلك.

وفيه أيضاً أن الإنسان مهما بلغ من ضر فإنه يحرم عليه الانتحار؛ ولهذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى زمن يستحكم فيه بالشر، وتظهر فيه الفتنة ظهوراً جلياً قد يستثنى مما نهى النبي عليه الصلاة والسلام منه في قوله: (لا يتمنى أحدكم الموت)، مع ذلك أشار إلى هذا، وأن غاية ما يريد المؤمن أن يتمنى الموت، وهذا فيه إشارة إلى أن قتل النفس من المحرمات في أي حال كان، وأن الإنسان ينبغي عليه أن يصبر حتى يتوفاه الله عز وجل، ويقرن ذلك بالدعاء من أن يحميه الله سبحانه وتعالى.

منع الزكاة

ومن أشراط الساعة: منع الزكاة، ومنع الزكاة من المسائل الجلية التي ربما يتهاون فيها كثير من أهل الخير والصلاح، والزكاة بابها وفروعها كثيرة، ولكن الكلام هنا عن التفريط فيها وبعض صور التفريط.

وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام عند الترمذي من حديث الفرج بن فضالة عن يحيى بن سعيد عن مُحَمَّد بن عمرو عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وقرب صديقه، وأقصى أباه، وتباهى الناس بالمساجد، ودعي الإنسان اتقاء شره، فذاك من علامة الساعة وأمارتها)، وهذا الحديث قد تكلم فيه بعض العلماء في حال الفرج بن فضالة .

ومن نظر إلى حال كثير من العقود المتأخرة وجد أن هذا من الظاهر الجلي في الناس؛ وذلك أن الزكاة إذا كانت مغرماً، أي: أن الإنسان يراها خسارة، ولا يراها نماء، وهذا يظهر في كثير من الأغنياء يسألون أن الزكاة كثيرة، ويحاول أن يتهرب منها، وهذا ممن فيه من هذا الوصف، فهو يرى الزكاة مغرماً، أي: أنها غرامة عليه وجباية يتبعها السلطان لأخذها.

وفيه إشارة إلى وجود الخير في بعض السلاطين الذين يأخذون المال من الناس، ويهرب الأفراد من ذلك؛ لأنهم يرون أن هذا من المغرم الذي يؤخذ منهم، ولا يرون أن ذلك من نماء المال وزيادته.

محق بركة المال بترك الزكاة وتأخيرها عن وقتها

وفيه أيضاً الإشارة إلى محق البركة من المال بسبب ترك الزكاة.

وثمة مسألة مهمة وهي أن بعض الناس يظن أن إذا حال عليه الحول كأن يكون حوله هذا اليوم؛ أنه يسوغ له أن يؤجل الزكاة إلى غد أو بعد غد ونحو ذلك، وهذا من الجهل العريض، فقد روى البخاري عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (ما خالطت

الزكاة مالاً إلا أهلكته)، وفي رواية أخرى بذكر (الصدقة)، والمعنى أن الإنسان إذا وجبت عليه الزكاة حرم عليها أن يتأخر فيها ولو خالطتها يوماً، فإن ذلك من أسباب محق البركة، ويخرج من هذا إذا أخرج الإنسان تلك الزكاة من ماله ولم تكن خليطة له، وأشهد على ذلك أنها زكاة، وانتظر القادم المستحق ليدفعها إليه، وقد روى البخاري عن النبي عليه الصلاة والسلام (أنه صلى بأصحابه مرة صلاة العشاء، ثم قام يجر رداءه إلى داره، ثم رجع إلى أصحابه، فقال: لعلكم نظرتم إلي ما الذي أعجل بي؟ فقالوا: نعم يا رسول الله، قال: إني تذكرت تبراً من ذهب من الصدقة، فخشيت أن يبيت إلا عند أهلي)، والمراد من ذلك هم الفقراء والمساكين؛ لأنه إذا وجبت الزكاة في هذا اليوم حرم على الإنسان أن يبقيه؛ لماذا؟ لأن المال ليس له، بل للفقراء من هذا اليوم، إلا إذا أعطاه الإنسان وكيلاً للفقير يوصله إليه.

وبه يعلم أن الإنسان إذا أعطى زكاته إلى وكيل له، وليس من وكيل مشترك بين الفقير والغني أن هذا من محق بركة المال، ويخرج من هذا الوكيل النائب عن الغني والفقير؛ ولهذا الوكلاء ثلاثة في هذا الباب: وكيل عن الغني، وهو كحال الغني، وجد المال عنده أو عند وكيله، فإن هذا حكمه واحد، ووكيل للغني والفقير فهذا يأخذ الحكمين، فإذا دفعه الغني إلى وكيله ووكيل الفقير بنية أنه وكيل الفقير جاز وصح، كحال المؤسسات والجمعيات الخيرية، أو الوكلاء الذين يقومون بتوزيع الصدقات على الفقراء، وأما وكيل الفقير فهو أولى بالدفع وأبرأ للإنسان من أن يدفعه إلى غيره ممن يشترك في باب الوكالة؛ لأن هذا أقرب إلى قبض اليد ودفع الزكاة.

من ثمار منع الزكاة

ويعلم أن هذا من ثمار جملة من أشراط الساعة التي تقدم الإشارة إليها، ومنها: الجشع والطمع، ومنها استفاضة المال، وذلك أنه مع استفاضة المال يقترن الشح؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (لو أوتي ابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً)، في إشارة إلى شدة الطمع، فإن المال إذا استفاض شح الناس بدفع الزكاة.

وفي ادعاء أن الزكاة مغرم ليس بدليل على أن قلة المال عند الإنسان، بل إن المال مستفيض، وهذا مشاهد عند كثير من أرباب الأموال الذين لو حسبت زكواتهم لم يوجد فقير في بلاد المسلمين، أو على وجه الأرض على وجه العموم.

ومن ثمار هذا أيضاً: ذهاب الأمانة، وتقلب الإنسان في حاله من فقر وغنى، وفي هذا إشارة إلى محق البركة والفتنة التي تكون بين الإنسان وأهله وزوجه، وتكثر في آخر الزمان لعدم البركة في ماله ونحو ذلك، وغير هذا مما يعلم في مسألة تبعة حب المال والشح المطاع.

التكسب من الأمانة

ومن هذا الخبر يذكر من جملة أشراط الساعة إذا كانت الأمانة مغنماً أي: يتكسب بها الإنسان، كحال بذل الشهادات، والوفاء بالوعد يأخذ عليه، وكذلك النيابة فيما لا يستحق الإنسان عليه أجراً، وغير ذلك في الأغلب من حال الناس مما يكون فيه الأمانة، كذلك الودائع، وهذا يظهر أيضاً في حال كثير ممن يأخذ الودائع في زمن، ويظهر هذا في البنوك الذين يستأمنون على

أموال الناس، ويأخذون من ذلك أجراً على تلك الودائع، وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها، أن تكون الأمانة مغنماً، أي: يغنمون لأجل كون الرجل أميناً، فالناس تأتمن البنوك، وتأخذ منهم جراء هذه الأمانة، وكذلك من فروعها أفراد الناس وأعيانهم الذين تكون لديهم الودائع، ويأخذون على ذلك أجراً.

وفيه إشارة إلى عدم اشتهار المعروف والتفاني، وإشارة إلى الشح وحب خصوصية الإنسان، وكذلك ما يشار إليه لعدم الإخلاص، وقد جاء في بعض ألفاظ هذا الخبر: (وأن يطلب العلم للدنيا)، ومن ذلك اشتهار العقوق، وطاعة الزوجة على طاعة الأم.

ومن أشراطها أيضاً ما جاء في هذا الخبر من تقريب الصديق على الوالد، وإظهار عقوقه ونحو ذلك، وكذلك تسلط بعض الناس حتى يُكرم اتقاء فحشه وسطوته وبغيه.

التباهي بالمساجد

ومن أشراط الساعة ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من التباهي بالمساجد.

المراد بالتباهي بالمساجد

والمراد بالتباهي بالمساجد بتشييدها وعمرانها على مبانٍ مختلفة حتى يتباهى الأغنياء كما يتباهون في بيوتهم: ذاك مسجد فلان، وذاك مسجد فلان، وشيد فلان مسجداً على هيئة كذا، وشيد فلان مسجداً على هيئة كذا، أو ما يقال أن مسجد فلان أكبر من مسجد فلان، أو مسجد فلان أجمل وأفضل، أو أكثر تحسيناً من مسجد فلان.

وقد جاء ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام كما عند أبي داود من حديث حماد عن أيوب عن قتادة و أبي قلابة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد).

ومعنى (يتباهى) أي: أنه وجد وكثر واستفحل، وتباهوا فيما بينهم.

وقوله هنا: (الناس) إشارة إلى الذين يعمرون المساجد، وإشارة أيضاً إلى الذين لا يعمرونها ممن لا يعنيهم هذا الأمر ممن يقول: مسجد حينا أفضل من مسجد حيكم، أو مسجد بلدنا أفضل من مسجد بلدكم، وهذا من أشراط وأماراتها، وهذا ظاهر جلي.

ويظهر أيضاً في تباهي كثير من الناس بإمامة مسجد معين على غيره ونحو ذلك.

صفة المساجد التي لها أفضلية وميزة

وبه يعلم أن حقيقة فضل المساجد الذي دل عليه الدليل ما يلي:

أولها: المساجد الثلاثة التي دل الدليل على تضعيف العبادة فيها، وهذه هي التي يشرع أن يخصها الإنسان بخصيصة من العبادة والذهاب ما لا يكون لغيرها؛ للدليل الوارد فيها.

ثانياً: ما تكثر فيه الجماعة، فإن الأجر فيه أفضل مما قل فيه؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل)، وهكذا.

ثالثاً: المسجد القديم أفضل من المسجد الحديث، وقد جاء هذا عند أبي نعيم في كتابه الصلاة من حديث ابن سيرين قال: (كنت أذهب مع أنس بن مالك فنمر على مسجد فيقول: أقديم أم حديث؟ فإذا كان حديثاً تجاوزه إلى غيره، وإذا كان قديماً صلى فيه). وأما ما عدا ذلك فلا يشرع قصده لذاته إلا لعلة خارجة شرعية عنه كقصد طلب العلم، أو عمارة ذلك المسجد وخصوصيته عن غيره بتعلم القرآن، ونحو ذلك، فإن هذا مما هو جائز ومندوب إليه.

وفي هذا كفاية، وبالله جل وعلا الإعانة، وبه التسديد والتوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.

الدرس الرابع

أخبر النبي ﷺ في سننه بأشراط الساعة الصغرى، والتي قد مضى أكثرها، ومما هو ظاهر في زماننا هذا: تداعي الأمم على أمة الإسلام، وركوب المياثر، وطلب المال بقراءة القرآن، ونطق الفسقة في أمر العامة، وظهور السمن، وكثرة الكذب، والاعتماد على كتب الدواوين وترك الكتاب والسنة.

مشابهة سنن وطرائق الأمم السالفة من بني إسرائيل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد تقدم الكلام معنا عن جملة من أشراط الساعة وعلاماتها، ونكمل في هذا المجلس.

ومن أشراط الساعة: مشابهة سنن وطرائق الأمم السالفة من بني إسرائيل؛ فقد روى البخاري وغيره من حديث عطاءعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر أو وذراعاً بذراع. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال عليه الصلاة والسلام: فمن)، والمراد من هذا أن الأمة تقتدي بجملة من أفعالها وأقوالها على طرائق وسنن أهل الكتاب.

ضعف أمة الإسلام وقوة أهل الكتاب

وفي هذا المعنى إشارة إلى ضعف هذه الأمة، وقوة أهل الكتاب، بعدما أخبر رسول الله ﷺ في جملة من الأخبار، وقد تقدم الإشارة إليها، من قوة هذه الأمة ومن بأسها على أهل الكتاب، كما هو ظاهر من كثرة الفتوح، وضعف المشركين والكفرة على وجه العموم، كما كان في ابتداء الأمر من امتلاك المسلمين للقوة، وقد يتخلل ذلك ضعف في الأمة وهوان وركون إلى الدنيا، والطمع في الدنيا وملاذها، حتى يتبعوا مع ذلك طرائق أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ولهذا أخبر رسول ﷺ أن الاتباع إنما يكون لأهل الكتاب خاصة، وهذا قد تقدم معنا فيما سبق الإشارة إلى ضعف أهل الكتاب في بداية الأمر، ولكن يتخلل هذا جملة من مظاهر القوة في أهل الكتاب على أهل الإسلام؛ وقد جاء متضمناً في خبر رواه الإمام أحمد وغيره من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: لا، أنتم حينئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل)، وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها أن تتداعى الأمم قبلنا، والغالب في نصوص الشرع وألفاظه إذا وردت جملة (الأمم السابقة) أنها تنصرف إلى بني إسرائيل من اليهود والنصارى، وإذا ورد إطلاق (الأمم السابقة) في كلام رسول الله ﷺ من غير قرينة صارفة فإنه يراد به اليهود والنصارى، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى.

تداعي الأمم على أمة الإسلام

وتداعي الأمم يراد به تسلط اليهود والنصارى على هذه الأمة، سواء في عقيدتها، أو في سلوكها، أو في أمنها واقتصادها، وهذا مشاهد في كثير من الأعصار المتأخرة، فظهر تداعي الأمم على هذه الأمة باستباحة دماء كثير من المسلمين، وسفك الدماء والسيطرة على كثير من الأموال والممتلكات، وبث الفرقة في بلاد المسلمين، والتشكيك في كثير من عقائد المسلمين، وهذا من الأشراط التي ظهرت.

وقد تقدم معنا الإشارة إلى أن أشراط الساعة الصغرى أكثرها قد ظهرت، وقد نص على هذا المحققون من أهل العلم كالبيهقي عليه رحمة الله، فإنه أشار في كتابه الدلائل والشعب على ذلك فقال: (وأكثرها ظهر) يعني: أشراط الساعة، وهي من جهة الأصل لم تظهر بتمامها، ويأتي الإشارة، وتقدم الإشارة معنا أيضاً إلى جملة من أشراط الساعة التي لم تظهر وهي في عداد الصغرى، ويأتي الإشارة إلى بعضها.

ركوب المياثر

ومن أشراط الساعة: ظهور ما يسمى بركوب المياثر وهي السرج، وقد جاء عند الحاكم في مستدركه، ورواه الإمام أحمد من حديث عبد الله القتباني ، عن أبيه ، عن عيسى بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليركبن رجال من أمتي المياثر)، وجاء في رواية: (سرجهم كأشباه الرحال، يقفون عند أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، رءوسهن كأسنمة البخت، العنوهن فإنهن ملعونات).

وفي هذا الخبر جملة من المسائل منها ما يتعلق بهذا الباب، ومنها ما هو متعلق بمسائل عامة.

وما يتعلق في هذا الباب من أشراط الساعة ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام فقال: (يركبون على المياثر كأشباه الرحال)، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (مياثر كأشباه الرحال) إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير إلا الدواب التي رأيتموها؛ ولهذا شبهها بالرحال، والراحلة هي الدابة من الإبل التي يوضع عليها السروج والهودج، فتكون شبيهة بها، ولكن عليها مياثر.

والمياثر هي ما يجلس عليه من القطن، وما يجلس عليه من الحرير، ويجمع على نحو ميثرة، إشارة إلى التنعم، وقد يشار إلى هذا المعنى إلى أن المراد بذلك هي الدواب التي تركب في وقتنا هذا، وما تسمى بالسيارات، وما قبل ذلك وتسمى بالعربات، وهذا من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تضمن هذا الحديث جملة من المسائل، منها: الإشارة إلى وقوف أهل المياثر عند أبواب المساجد ونزول الرجال منها، ونساؤهم فيما يظهر في هذا الخبر بتمام هذا السياق، ولكنهن (كاسيات عاريات، رءوسهن كأسنمة البخت، العنوهن فإنهن ملعونات)، وهذا يتضمن أن من المسلمين مع ضعف تمسكه بمجموع الشريعة إلا أنه يأتي إلى المساجد قاصداً الصلاة، وبعض النساء ربما طبقن جملة من شيء من الشرائع مع تركهن لجملة من الأحكام الشرعية من ذلك الستر والحجاب، والتمسك بجملة من الأحكام الشرعية لا يعني وجود الفسق في المسلمين وكذلك المسلمات.

وبه يعلم أن كثيراً من المسلمين سواء كانوا من الرجال أو من النساء يتلبسون بجملة من أعمال الخير، وجملة من أعمال الشر، وهذا يظهر في زماننا كثيراً، وقد أشار إلى هذا المعنى رسول الله ﷺ في جملة من الأخبار في قوله: (تعرف وتنكر)، وهذا الحديث شاهده في صحيح الإمام مسلم كما تقدم الكلام عليه (صنفان من أمتي لم أرهما)، وذكرنا الكلام عليه في هذا الباب، وكذلك جملة من المسائل التي وردت به.

- **صدق رؤيا المؤمن**

ومن أشراط الساعة: صدق رؤيا المؤمن، وهذا قد جاء عند الإمام مسلم عليه رحمة الله من حديث محمد بن سيرينعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (في آخر الزمان لم تكد رؤيا المسلم أن تكذب).

والمراد من هذا أن المؤمن وإن كان ناقصاً من جهة الأصل في الإيمان، وإن كان قد يتلبس بشيء من الفسوق إلا أنه من جهة الكفر والفسق في أهل عصره امتاز بقلة الكذب، وقد جاء عن رسولنا ﷺ كما عند الترمذي وغيره (القابض على دينه في آخر الزمان كالقابض على الجمر)، وقد جاء عند الترمذي والإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (وددت لو أني رأيت إخواني. قالوا: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: لا، أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين يأتون من بعدي، للعامل منهم أجر خمسين. قالوا: منا أو منهم؟ قال: بل منكم).

وفيه فضل المؤمن وإن كان مقصراً في آخر الزمان على من كان سلف في ذات الأعمال التي هي في مجموع الإيمان، وإلا قد ثبت

عن رسول الله ﷺ كما في الصحيح قوله: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، وفيه إشارة إلى أن أعمالهم قد اقترن بها عمل القلب وقوة الإيمان وصدق النية مما قد يقل في المتأخرين من أمة مُحَمَّد ﷺ.

وما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من صدق الرؤيا فيه إشارة إلى تعلق الناس بهذه الرؤيا، والرؤى يلتزمها كثير من الإشكالات التي تكون بين قطعية الأخذ بها، ومن هذه الإشكالات صدق الرؤيا، ومن هذه الإشكالات صدق أو إصابة المعبر، وهذا أمره من الغيب في الأغلب؛ ولهذا لا يجوز التعلق بالرؤى والعمل بها، وإنما يستأنس بها؛ ولهذا من عمل عملاً، أو أمسك عن شيء، وجزم بذلك اعتماداً على رؤيا، وخالف في إمساكه أو فعله ظاهر النص يقال أنه قد أحدث؛ لأن النص قطعي، والرؤيا هي من الوحي ظني، وإلا هي من أجزاء النبوة.

وأما صدق الرؤيا وكذبها فجاء تفسيره عند الإمام أحمد ، وعند الطبراني ، و ابن مندة في كتابه الروح والنفس من حديث ابن عجلان عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه (أن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى ذهب إلى علي بن أبي طالب فقال: ثلاث ليس عندي منهن عن رسول الله ﷺ علماً، فهل عندك عنه منهن علماً؟ قال: وما هن؟ قال: إني أرى الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، وأرى الرجلان يكره الرجل ولم يره منه شراً، وأرى الرجل يحدث الحديث إذ نسيه إذ ذكره، والرؤيا تكون صادقة وتكون كاذبة، فقال علي بن أبي طالب عليه رضوان الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أما الرجل يكذب ولم ير منه خيراً، وأما الرجل إذ ينسى وإذ يذكر عند حديثه، فإن للقلوب سحابة كالسحابة التي تكون على القمر، إذ علت عليه سحابة فأظلم إذ تجلت عنه فأضاء، وكذلك الإنسان يتحدث إذا أتت سحابة على قلبه نسي، وإن زالت تذكر، وأما الرؤيا تكون صادقة وتكون كاذبة فذلك الإنسان ينام فيصعد بروحه فإن بلغت السماء قبل أن تجتالها الشياطين صدقت، وإن لم تبلغ السماء حتى اجتالتها الشياطين كذبت).

وهذا الخبر قد رواه الأزهر الأودي في روايته عن مُحَمَّد بن عجلان ، عن سالم ، عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن عمر ، وروي من غير هذا الوجه عن سالم عن عبد الله بن عمر، وروي بغير هذا اللفظ بأكثر منه، فرواه ابن مندة في كتابه الروح والنفس، ورواه الإمام أحمد عليه رحمة الله في كتابه المسند.

وفي هذا إشارة إلى أن الرؤى تأتي في باب الظنيات ولا يقطع بها، وإنما تكون هي من أبواب الاستئناس، يستأنس بها الإنسان في أموره ما لم يكون هناك نص شرعي؛ ولهذا يذكر عن بعض السلف أنه جاءه رجل فقال له: إني رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، فقال لي: إن رمضان غداً، فقال له: إن الذي رأيته في المنام أخبرنا في اليقظة، فقال: (صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته)، فالعبرة بالوحي الناطق والاعتماد عليه، وترك ما عداه من أقاويل الرجال وأحكامهم، وكذلك الرؤيا، وهذا لا يعني تنقيصاً من مقام الرؤيا، فهي جزء من النبوة كما جاء في ذلك الخبر، وتقدم أيضاً الإشارة إليه.

الاعتماد على الدواوين والمصنفات وترك الكتاب والسنة

ومن أشراط الساعة: الاعتماد على دواوين مكتوبة وقواميس مصنفة، وترك الكتاب والسنة، وعدم الاعتماد عليها، وقد جاء هذا عن رسول الله ﷺ كما رواه ابن وضاح من حديث عبد الله بن عمرو قال: (لا تقوم الساعة حتى يظهر القول، ويدفن العمل، ألا إن من أشراط الساعة أن تتلى المثناة فلا يوجد من يغيرها, فقيل له: وما المثناة؟ قال: ما استكتب من كتاب غير القرآن).

وتقدم معنا في غير ما موضع أن كتاب الله إذا أطلق فالمراد به القرآن والسنة، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث زيد بن خالد و أبي هريرة (أن رسول الله ﷺ لما جاءه الرجل الأعرابي الذي كان عنده عسيفاً، فزنى بامرأته، قال: اقض بيننا بكتاب الله، فقال رسول الله ﷺ: لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها).

فرسول الله ﷺ قد احتكم بشيء من الأحكام وهو منصوص عليه في القرآن وهو الجلد، ونص على الرجم وهو في كلام الله، كما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب ، وكذلك قد رواه الإمام أحمدبإسناد لا بأس به من حديث عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب : (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة). وأما التغريب فإنه لم ينص عليه في كلام الله إلا على سبيل الإجمال ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة:92].

وأما ظاهر حديث عبد الله بن عمرو قال: (ما استكتب من كتاب غير القرآن)، فالمراد من هذا أن الناس يعتمدون على الدواوين الفقهية، ولا يعتمدون على الوحي، وهذا ظهر وتفشى في الأعصار المتأخرة، واعتمدت أقوال الشيوخ، بل اعتمدت أقوال الأصاغر، ولم يتل في كثير من مجالس العلم القرآن ولا السنة، واعتمد على فتوى فلان وفلان، وهذا لا شك أنه من أشراط الساعة، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يبلغ أو يدلل، تجد هذا يرجع إلى الكتب وهذا يرجع إلى الدواوين، ولم يرجع إلى كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ، وذلك من الفتنة التي ولدت الفرقة في صفوف المسلمين، فكتبوا الآراء والاجتهادات، وظهرت الأقوال الشاذة في الدين.

والأولى في ذلك أن يرجع في أمور الدين للكتاب والسنة على السواء، فإنه الوحي الناطق الطاهر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعتمد في فهم ذلك على فهم السلف الصالح من الخيار الذين وصفوا بالخيرية كما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عمران بن حصين : (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

وهذه الخيرية التي أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام هي تفسير لقوله: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فالفقه في الدين لما وجد في هذه القرون الثلاثة استحقت الوصف بالخيرية على سائر القرون، فقال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

والمراد من هذا أن الأمة إذا وجد فيها العلم ووجد فيها الحق من الكتاب والسنة، ووجد فيها من ينصح لله حقاً، كانت أهلاً لأن

توصف بالخيرية، ولذلك روى ابن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها من حديث عبد الله بن مسعودعليه رضوان الله تعالى قال: (لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه، لا أقول: عام أمطر من عام، ولا أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن ذهابكم ذهاب علمائكم).

فإذا وجد في الأمة من يعتمد على الكتاب والسنة واعتقد على مذهب السلف من الأئمة من الصحابة والتابعين وأتباعهم فليعلم أن الأمة مرحومة، وإذا وجد في الأمة من يعتمد على الآراء الفقهية وآراء الرجال، ويقدمها على الكتاب والسنة، فليعلم أن ذلك من الأخذ عن الأصاغر، وهم أهل البدع، كما جاء في حديث عبد الله بن المبارك ، وقد تقدم الإشارة إليه من حديث أبي أمية أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أشراط الساعة أن يؤخذ العلم عن الأصاغر). وقد سئل عبد الله بن المبارك : من هم الأصاغر؟ فقال: هم أهل البدع. وجاء عنه في موضع أنه سئل: ومن الأصاغر؟ قال: هم الذين يقولون برأيهم، وأما صغير يروي عن كبير فليس بصغير.

وفي هذا أن قيمة الكتاب والسنة ووجودها عملاً في الأمة هو مناط الرحمة والخير في هذه الأمة، فإذا اعتمد على دواوين العلم المصنفة بما يسمى بأبواب الفقه، أو ما يسمى بأبواب الآراء وعلوم الآلة، ونحي مع ذلك الشريعة فإن هذا هو الضلال بعينه، وأما إذا اتخذت دواوين العلم طريقاً وسبيلاً إلى التبصر في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وأخذت أقوال الرجال مع اقترانها بالدليل فإن هذا من الطرائق المسلوكة عند أهل العلم من الصدر الأول إلى يومنا هذا.

الشهادة دون طلبها

ومن علامات الساعة وأشراطها: ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من ظهور أقوام في آخر الزمان (يشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويؤتمنون ويخونون، ويظهر فيهم السمن)، وقد جاء هذا في الصحيح من حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يخرج أقوام يشهدون ولا يستشهدون)، أي: يدلون بالشهادة من غير طلب، ويظهر من هذا السياق أنهم ما بادروا بالشهادة إلا لأجل مطمع؛ وقد أشار في بعض المواضع مما يتضمن شحاً؛ وذلك أن الإنسان إذا نذر ولم يوف بنذره، إشارة إلى كونه من جهة كفارة الأيمان، وإذا شهد من غير استشهاد إشارة إلى أنه أدى بالشهادة لأجل مطمع من الدنيا، إما رغبة أو رهبة ممن شهد له.

وقد قال رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد وغيره من حديث رميح عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: (إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً)، فقوله: (الأمانة مغنماً) أي: أن ثقة الإنسان وعهده وصدقه يجعل من الأمور التي يتكسب بها الإنسان في يومه وليلته، وهذا مشاهد، فكثر في الأزمان المتأخرة من يشهد ويزكي الرجال لأجل منافع ومصالح وحظوظ النفس، وظهر كذلك من جعل صدقه رغبة في المدح، وهذا لا يخرج عن المغنم؛ لأن المغنم عام سواء من المغانم المعنوية أو المغانم المادية، وهو متضمن أيضاً لقصد كثير من الأعمال لغير الله جل وعلا، وهذا هو الرياء؛ ولهذا جاء في الحديث المروي عند الإمام أحمد من حديث أبي هريرةقال: (وأن يطلب العلم لغير الدين)، يعني: لغير الله جل وعلا، فإذا انتشر هذا وظهر في الناس فإن هذا من أشراط الساعة وعلاماتها.

ظهور السمن وعدم الوفاء بالنذور

ومما ذكره هنا قال: (ويظهر فيهم السمن)، وفيه إشارة إلى رغد العيش، ورغد العيش إذا ظهر في الأمة ولم تنشغل الأمة بمهماتها العظيمة ظهر في الأمة السمن، وقوله: (ظهر) إشارة إلى أن هذا الأمر أصبح ظاهرة بعدما كان على الأفراد، فإذا كان ظاهرة فإن هذا من أشراط الساعة وعلاماتها.

وإذا وجد كذلك في الأمة من إذا نذر لا يفي بنذره، وفيه إشارة إلى كثرة الأحداث، وأن يجعل الإنسان الله عز وجل عرضاً ليمينه ولا يفي بتلك اليمين، ولا يكفر، وهذا فيه إشارة إلى ضعف إيمان الإنسان وعدم خوفه من الله سبحانه، وهذا إشارة إلى اضمحلال العلم ونقصانه في الناس، وإذا انتقص العلم ظهر معه الجهل كما تقدمت الإشارة إليه.

كثرة الزلازل

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: كثرة الزلازل، وكثرة الزلازل قد جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك جملة من الأخبار، منها ما رواه أبو هريرة كما في الصحيحين وغيرهما قال: (لا تقوم الساعة حتى يكثر القتل، وتظهر الزلازل)، والمراد بالزلازل يحمل على الزلازل المعروفة، وما يفسره به بعض من تكلم في أشراط الساعة على أن المراد بالزلازل هي الفتن على وجه العموم، فيقال: إنه ليس المراد بذلك من وجوه متعددة: منها: أن تخصيص الفتنة قد جاء في كلام رسول الله ﷺ، وأنه من أشراط الساعة في جملة من المواضع، منها ما دل عليه الدليل على وجه العموم والإجمال، ومنها ما كان على سبيل التفصيل بأدلة خاصة، كما تقدم الإشارة إليه عند فتنة الرجل في أهله وماله وولده، وكذلك في الفتن التي أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام أنها كالقطر في بيوت أهل المدينة، وتقدم الإشارة إليه.

إذاً المراد بالزلازل هي الزلازل المعروفة التي تتضمن ارتجاج الأرض وتصدعها وانشقاقها.

ظهور الصواعق

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: ظهور الصواعق، والمراد بالصواعق هي سقوط الشهب على الأرض وما في حكمها مما يوصف به، وقد جاء عند الإمام أحمد في كتابه المسند من حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: (في آخر الزمان تكثر الصواعق حتى يأتي الرجل أهله فيقولون: من صعق الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان)، وهذا الحديث قد روي من طريق محمد بن مصعب ، وقد قال فيه الإمام أحمد : وفي حديثه عن الأوزاعيمقارب الحديث، وقد وثقه غير واحد كابن معين ، وقال النسائي : ليس به بأس، وهذا الحديث يشهد له كثير من الوقائع المعاصرة، وقد تقدم الإشارة إلى أن الأصل في الأخبار وما روي عن رسول الله ﷺ لا بتصحيح شيء من النوازل المتأخرة، ولكن هي من القرائن التي يستأنس فيها، وليست من طرائق الأئمة النقاد.

كثرة الكذب

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: كثرة الكذب؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد و مسلم من حديث أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: (يكثر الكذب بين يدي الساعة)، وهذا في قوله عليه الصلاة والسلام: (بين يدي الساعة) إشارة إلى أنه قبيل خروجها، وهذا خارج عن الكذب الذي تقدم الكلام عليه في مسألة الكذابين الذين يدعون النبوة، وهذا نص عام.

وقد جاء تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من الكذابين ولمن يكذب عليهم، قال: (لا يضلونكم، ولا يفتنونكم)، يعني: لا يزيغونكم عن طريق الحق، وهذا متضمن لكذب العامة بأقوالهم وأفعالهم، ومتضمن أيضاً للكذب في العلم والأقوال ونسبتها للشريعة، والشريعة منها براء، وقد تقدم الإشارة إلى هذا الأمر.

ومما جاء في أشراط الساعة مما جاء عن رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد من حديث عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال: (إن من أشراط الساعة أن يظهر القول، ويدفن العمل)، وهذا فيه إشارة إلى كثرة الدعاوى التي لا يصدقها العمل، وهذا متضمن لورود النفاق، فإن الذي يقول: أنا سأعمل هذا من صفات المنافقين، وقوله: (يظهر) أي: ينتشر ويظهر في الناس حتى لا يكاد يسلم منه أحد.

تكريم الرجل وإعزازه اتقاء لفحشه

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: أن يكرم الرجل ويعز اتقاء لفحشه، وقد جاء هذا عند الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من أشراط الساعة أن يكرم الرجل اتقاء فحشه)، يعني: لسلطته وتسلطه على الناس، فإما أن يكون صاحب سلطان، أو صاحب جاه ومال، أو أن يكون الرجل صاحب لسان فيتقى فحشه، كما جاء عن رسول الله ﷺ في الصحيح من حديث عائشة قال: (إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه)، وقد ترك النبي عليه الصلاة والسلام بعض الناس لأجل هذا المقصد، ولكن إذا كان هذا الأمر ظاهراً في الأمة فإن هذا من علامات الساعة وأشراطها.

ارتفاع الأصوات في المساجد

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: ارتفاع الأصوات في المساجد، وفيه تضمن لعدم توقير المساجد واحترامها، وهذا قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة ، وقد جاء ما يعضده عند ابن أبي شيبة في كتابه المصنف من حديث خيثمة عن عبد الله بن عمرو قال: (لا تقوم الساعة حتى يجتمع الناس في المساجد، وليس فيهم مؤمن)، فإذا رفع الصوت في المساجد وهو منافٍ لاحترام المساجد وتوقيرها فإن هذا من علامات الساعة.

اتخاذ المساجد طرقاً

ومن علامات الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً، يعني: يمر الناس عليها عبوراً سواء بالدخول عليها والمكث فيها من غير صلاة، أو المرور عليها من غير أداء للفريضة، إما لأمر من أمور الدنيا ومصالحها، أو طلباً للرياء والسمعة، وغير ذلك من الأغراض السيئة، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ كما رواه الدارقطني وغيره من حديث عامر بن شراحيل الشعبي عن أنس بن مالك قال: (إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً)، وقد جاء ذلك عند الطبراني من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة بنحوه.

انتفاخ الأهلة

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: انتفاخ الأهلة، أن يرى الهلال قبلاً، يعني: لليلة، ويظن أنه لليلتين، وهذا الحديث رواه الدارقطني في كتابه السنن، وقد رواه في العلل موصولاً ومرفوعاً، وصوب إرساله من حديث عامر عن أنس بن مالك، وقد جاء أيضاً من حديث عامر الشعبي عن رسول الله ﷺ وهو الأصوب، وجاء موصولاً عند الطبراني من غير هذا الوجه من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: (إن من أشراط الساعة انتفاخ الأهلة، فيرى الهلال لليلة ويقال: إنه لليلتين)، وقد روى هذا الخبر غير واحد من الأئمة.

طلب المال بقراءة القرآن

ومن علامات الساعة وأشراطها: أن يطلب بقراءة القرآن المال، ولا يطلب به الأجر، وقد جاء في ذلك جملة من الأخبار عن رسول الله ﷺ دالة على أصل هذا المعنى، منها ما جاء فيما تقدم: (أن يطلب العلم لغير الدين)، ومنها أيضاً ما جاء عن رسول الله ﷺ في مسند الإمام أحمد من حديث زيد بن أسلمعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسألوا الناس بالقرآن، فإنه سيأتي أقوام يسألون الناس بالقرآن)، وهذا الحديث متضمن لمجموعة من المسائل:

الأولى: إلى أهمية النية والقصد، وأن الإنسان إذا طلب العلم لغير الله فإنه قد قصد بأعظم الأعمال وأشرفها عند الله قصداً سيئاً، فاستحق بذلك المقت والعقاب الأليم، فإن أولئك من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة.

الثانية: متضمن لمسألة مهمة تكثر ويحتاج لها في زمننا، وهي أخذ ما يسمى بالمكافئات المالية، أو المادية العينية على وجه العموم، هل ذلك من المحمود أم لا؟ فإذا كان قصد الإنسان من غير سؤال فإن ذلك مما لا حرج فيه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله).

الثالثة: يتضمن هذا الحديث إلى أن الإنسان إذا أخذ أجراً على كلام الله عز وجل من غير قصد، وإنما جاء عرضاً فإن هذا مما لا حرج فيه، فلو أعطي الإنسان مكافئة، أو أجريت مسابقة فإن هذا لا حرج فيه شريطة ألا يكون قصده بالتعليم لأجل الدنيا، وبهذا يعلم أن النية مهمة لسائر الأعمال، وتظهر في العلم أجلى من غيره؛ لأن العلم يلزم منه العمل، فإذا فسدت نية الإنسان في العلم فسدت نيته في العمل والعياذ بالله.

قلة الرجال وكثرة النساء

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: قلة الرجال وكثرة النساء، كما روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (في آخر الزمان يذهب الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد)، وهذا متضمن لجملة من المسائل، منها ما تقدم الإشارة إليه إلى كثرة القتل والهرج بين الناس، فإذا ظهر الهرج والقتل في الناس فإن قد يؤدي إلى ذلك، فيقل الرجال، وتكثر النساء، وهذا تقدم الإشارة إليه معنا إلى أن القتل الوارد في الأحاديث عن رسول الله

ﷺ المراد به القتل بين المسلمين، وليس القتل بين المسلمين والكفار؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيما قتل)، (والقاتل والمقتول في النار) كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذات الحديث، وهذا يظهر فهمه في هذا الحديث، فإنه ليس المراد بذلك الأمراض، فإن الأمراض إذا دبت في الناس تدب على الرجال والنساء على السواء بدافع الخلطة والعدوى ونحو ذلك، فإذا انتقل من رجل إلى رجل فإنه ينتقل إلى امرأة، وإنما الإشارة إلى هذا إلى مسألة الحروب والاقتتال في آخر الزمان.

كثرة الروم وقلة العرب

ومن علامات الساعة وأشراطها ما تقدم الإشارة إليه على سبيل الإجمال، وهو: كثرة الروم وقلة العرب، وهذا قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح الإمام مسلم من حديث المستورد بن شداد ، وجاء أيضاً في صحيح الإمام مسلم من وجه آخر من حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: (ليوشكن أن يفر الناس من الدجال في الجبال، قالت أم شريك : يا رسول الله! والعرب أين هم يومئذٍ؟ قال رسول الله ﷺ: هم يومئذٍ قليل)، وفي حديث المستورد عليه رضوان الله تعالى قال: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس)، وقد تقدم الكلام عليه، وعلى التعليل على سبيل الاستنباط، والعلماء يذكرون السالفين وكذلك المتأخرين من تكلم في أشراط الساعة هذا الحديث على سبيل الإجمال، ويريدون بذلك الكثرة العددية، والذي يظهر والله أعلم أن المراد بذلك اللسان، أنه إذا انتشر إذا لسان الروم فإن الناس يسمون روماً، وإذا انتشر لسان العرب يسمون عرباً؛ وتقول العرب: إن العربي من تكلم العربية ولو كان أصله أعجمياً، إذا هجروا لغتهم، وكذلك الأعجمي يسمى أعجمياً إذا تكلم الأجنبية ولو كان أصله عربياً، والأعرابي من سكن البادية ولو كان أعجمي.

وبه يعلم أن المراد انتشار اللسان، وهذا مشاهد فقد انتشرت وذاعت لغة الروم حتى تكلم بها دول، وأصبحت تقرر على مناهج التعليم في كثير من الدول التي طالها الاستعمار في كثير من البلدان الإفريقية ونحو ذلك، بل من البلدان التي أصلها يتكلم العربية بعد فتوحات الإسلام كانوا يتكلمون العربية، فلما طالها أو نالها الاستعمار تكلموا بكلام العجم، منهم من يتكلم بالفرنسية، ومنهم من يتكلم بالإنجليزية، ومنهم من يتكلم بالبرتغالية، وغيرها من اللغات، وهؤلاء أصبحوا روماً وإن كان أصلهم من العرب.

نطق الفسقة بأمر العامة

ومن علامات الساعة وأشراطها: ما جاء عن رسول الله ﷺ من نطق الفسقة بأمر العامة، وهذا قد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رواه الإمام أحمد من حديث مُحَمَّد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال: (إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يكذب فيها الصادق، ويصدق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، وينطق فيها الرويبضة، قالوا: ومن الرويبضة؟ قال: الرجل الفاسق)، وجاء في لفظ: (الرجل التافه يتكلم بأمر العامة)، يعني: يتكلم بأمر المسلمين.

وهذا ظاهر في كثير من بلدان المسلمين من تصدر كثير من الفسقة لمنابر الرأي والإعلام، فتكلموا بمسائل الاعتقاد، وشككوا في كثير منها، وطعنوا في كثير من المسلمات في أبواب الأخلاق، وأبواب القيم، فضلاً عن أحكام الشريعة، فرأينا من يتكلم على

عقيدة الولاء والبراء، ورأينا من يتكلم على مسألة الحب والبغض بين المؤمنين والمشركين، ورأينا من يتكلم في مسائل الجهاد وليس منها، ورأينا من يتكلم في مسائل الأخلاق وينفي حرمة كالاختلاط، ويشكك في الحجاب، وأنه ليس من الدين، بل من عادات العرب التي وجدوها عمن سلف، وهذا لا شك أنه من نطق الرويبضة والفسقة الذين قاموا بكثير من الميادين، وهذا شامل لجميع أبواب الدين، فلا يخلو باب من أبواب الدين من نطق الرويبضات فيه.

هلاك قريش وأكل القوي لحق الضعيف

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: هلاك قريش، وقد جاء ذلك عن رسول الله ﷺ من حديث إسحاقعن أبيه عن عائشة عليها رضوان الله تعالى قالت: (دخل علي رسول الله ﷺ فقال: يا عائشة ! إن قومك أول الناس بي لحوقاً، قالت عائشة عليها رضوان الله تعالى: جعلني الله فداك يا رسول الله! لقد قلت كلاماً ذعرني، فقال رسول الله ﷺ: نعم، إن أول الناس لحوقاً بي قومك، تتنزل بهم المنايا)، يعني: أنها تفتك بهم، قالت: (والناس يومئذٍ؟ قال: فيهم درن، يأكل القوي منهم الضعيف)، وهذا علامة وشرط آخر من أشراط الساعة.

تسلط أهل الأهواء والسلطة

وقوله هنا: (يأكل القوي فيهم الضعيف) إشارة إلى تسلط أهل الأهواء، سواء من أرباب الجاه أو السلطة، أو أرباب القوة الجسدية بأخذ أموال الضعفاء قسراً، وتعدى ذلك إلى القتل؛ ولهذا أشار إليه، قال: (درن، يأكل فيهم) إشارة إلى أن فيهم القتل، كما أن قريش دب فيهم الموت، وهذا إذا ظهر في الأمة فليعلم أن الأمة لا قداسة لها ولا تعظيم، وهي هينة عند الله؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني وغيره من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه ديناً له، فأغلظ للنبي عليه الصلاة والسلام في دينه، فقضاه دينه، ثم قال: لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع)، والمراد بهذا نفي القدسية عن الأمة التي لا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع، يعني غير متعتع في العبارة، يأخذها وهو جسور عليه، فينصف له بالحكم بالشريعة، والأخذ بذلك.

فإذا حكمت الأمة الشريعة فليعلم أنها أمة مقدسة، وهو أول ما يتلاشى من المجتمعات المسلمة، وهو الحكم بما أنزل الله، فإذا تلاشى من المجتمع علم أن هذا المجتمع ليس بمقدس، وظهر فيه الظلم، وإذا أقام المسلمون على شريعة الله، وكانت الأحكام على كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ فليعلم أن الأمة مرحومة وهي أمة مقدسة.

ذهاب الحكم بما أنزل الله

وأول ما يذهب من الأمة والمجتمعات التي توصف بمجتمعات مسلمة هو الحكم بما أنزل الله، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد وغيره قال: (أول ما يذهب من الإسلام الحكم، وآخر ما يذهب منهم الصلاة)، وفيه إشارة إلى جملة من المسائل:

منها: أن المجتمع إذا ذهب فيه الحكم بما أنزل الله أنه لا ينزع من أفراد الناس وأعيانهم، ولو تحاكموا طلباً للحياة والضرورة بدفع المفاسد الطارئة عليهم لا ينفى عنهم الإيمان، وهذا يظهر في كثير من البلدان المسلمة التي لا تحكم فيها الشريعة، تسلب أموالهم، وتقتل أبناءها، ويعتدى على بيوتهم بالسرقة، فماذا يفعلون؟ يقال: إنهم لا حرج عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم البلاء قدر إمكانهم، ويبقون على الإسلام ما بقيت الصلاة، فإذا ذهبت الصلاة فإنه لم يبق إسلام يوصف به، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن ذلك آخر ما يذهب من هذه الأمة يعني الصلاة، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام البيان في كفر تارك الصلاة كما رواه الإمام مسلمفي كتابه الصحيح من حديث جابر بن عبد الله قال: (بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة)، وقد روى الإمام الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث بريدة أن رسول الله ﷺ قال: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر).

وحديث أبي سعيد الخدري في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (لا قدست أمة، لا يأخذ القوي حقه من الضعيف غير متعتع) هذا الحديث قد جاء موصولاً ومرسلاً، قد رواه البزار في مسنده من حديث الأعمشعن أبي صالح مرسلاً، ورواه البيهقي في سننه من حديث الأعمش عن أبي صالح مرسلاً، ورواه الطبراني من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد موصولاً، وصوب البزار في مسنده و البيهقي في سننه الإرسال.

أهمية انتشار العدل

وفي هذا الحديث وفي حديث الباب في شرط الساعة أهمية انتشار العدل في الناس وحرمة الظلم، وأن الظلم إذا انتشر في الأمة فهو داخل في جملة أشراط الساعة التي تقدم الإشارة إليها: قبض العلم، وظهور الجهل، وظهور الفتن، والدعاة على أبواب جهنم الذين يلبسون الحق بالباطل على الناس، فيجعلون العدل ظلماً، والظلم عدلاً، وهذا من أعظم الظلم والجناية في حق الله سبحانه وتعالى.

كسو البيوت بالثياب

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: كسو البيوت بالمراحيل، أي: أن يوضع على الجدر كساء من غير حاجة، في إشارة إلى الترف، هذا الحديث رواه الإمام أحمد من حديث سعيد بن أبي هند عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (في آخر الزمان تبنى البيوت، وتكسى بالمراحيل)، والمراحيل هي الثياب المخططة، والثياب المراد بها الستر التي توضع في البيوت وغيرها، فلا توضع كسفرة أو الكوة، وإنما توضع من غير حاجة، ولعله يدخل في هذا أيضاً الأقمشة التي توضع على الحوائط وتكسى بها ونحو ذلك، وهذا متضمن للترف، كثرة المادة بأيدي الناس، وهذا تقدم معنا على سبيل الإجمال في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (واستفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً)، إشارة إلى كثرة الغنى والمال في الناس.

تنافر الناس لبعضهم

ومن أشراط الساعة وعلاماتها: تنافر الناس لبعضهم، وهذا قد جاء عند الإمام أحمد وغيره من حديث حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله قال: (لا تقوم الساعة حتى يتنافر الناس لبعضهم)، والمراد بتنافر الناس لبعضهم جاء تفسيره في هذا الخبر قال: (فلا

يعرف الواحد منهم الواحد)، يعني: إشارة إلى ما تقدم الكلام عليه من الطمع والشجع أن الإنسان إذا كان لا يسلم على الشخص إلا لأجل المعرفة، فهو يحجم عن تزويد المعارف وتكثيرها حتى لا يرجع إليه بحال، ولا يطلب منه شفاعة ولا إحسان ولا مال، وهذا إشارة إلى الشح الذي تمكن في النفوس وعدم البذل، وهذا الشح المطاع إذا ظهر في الأمة ودب وكثر فليعلم أن هذا من أشراط الساعة وعلاماتها.

وبهذا القدر كفاية، والدرس القادم بإذن الله عز وجل نذكر ما تبقى من أشراط الساعة الصغرى، ثم نلحقها بالكبرى، ونتكلم في ختام ذلك عن ترتيب أشراط الساعة الكبرى والمرويات التي جاءت فيها في هذا، واختلاف العلماء عليهم رحمة الله في وقوع أشراط الساعة الكبرى على ترتيب وقع فيه خلاف، والكلام على أشراط الساعة مما يطول، وكثير منها فيها تداخل، منها ما يلزم بعضها لبعض كما تقدم الإشارة إليه، وعلى التجزئة فقد ذكرنا أكثر من مائة شرط من أشراط الساعة، منها ما يندرج تحت نص عام، ومنها ما يمكن إفراده في باب.

الأسئلة

الحكم على حديث (إن بين يدي الساعة سنوات خداعات)

السؤال: ما صحة حديث (أن بين يدي الساعة سنوات خداعات)؟

الجواب: هذا الحديث قد رواه الإمام أحمد و الترمذي من حديث محمد بن إسحاق عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك ، وقد جاء من غير هذا الوجه، ولا بأس به، وأصله في الصحيح تقدم معنا الكلام عليه.

التحاكم إلى قوانين النصارى لعدم وجود التحاكم إلى الشريعة

السؤال: في حال عدم تحكيم الشريعة، وإنما تحكيم القوانين، هل يجوز التحاكم إلى النصارى إذا كان يعلم أنهم لا يظلمون؟

الجواب: هذه مسألة لا يليق الارتجال بها على سبيل الاختصار؛ لأنها مسألة دقيقة ومشكلة تتعلق بأصل عظيم؛ وقد تكلمت عليها في غير هذا الموضع في حكم التحاكم إلى القوانين الوضعية.

والتحاكم إلى القوانين الوضعية الأصل فيه أنه لا يجوز، أما مسألة الضرورة لكثير من المسلمين في البلدان، لأن أكثر الدول لا تحكم الشريعة إلا هذه الدولة، سواء دول الخليج، أو الدول العربية على وجه العموم، فضلاً عن الدول الأجنبية التي فيها أقليات مسلمة، لا تستطيع أن تصل إلى كثير من الأحكام حتى فيما يتعلق بالشئون الشخصية إلا ما ندر، وهذا يدخل في مسألة توافق القوانين الوضعية مع الشريعة، إذا توافقت في الظاهر.

وكذلك في مسألة دفع المظالم: هل يتحاكم لأجل دفع المظلمة؟ الإنسان إذا أخذ ماله في دولة لا تحكم بالشريعة، ماذا يصنع؟

هل يترك المال؟ باعتبار أن الشريعة لا تحكم.

كثير من المسلمين مثلاً يتعدى عليهم بالقتل في أوروبا وفرنسا، فرنسا فيها قرابة السبعة الملايين مسلم، هؤلاء إذا قتل منهم قتيل ماذا يفعل بهم؟ هل يشتكي؟ أولاً إذا قصد بالإنسان دفع المظلمة ودفع المضرة عن نفسه لا بقصد التحاكم هذا من جهة الأصل جائز، أما تفصيل مسألة التحاكم وتفريعاتها، فيحسن الرجوع إلى ما تكلمنا فيه في هذا الموضع؛ لأن الإجمال فيما يقتضي التفصيل يورد كثيراً من الإشكالات، وكذلك الفهم الخاطئ، أو الفهم على غير وجهه.

ذم ما يقع من أشراط الساعة

السؤال: هل يلزم من وقوع أشراط الساعة أن تكون مذمومة؟

الجواب: الأصل أن ما يخبر به عليه الصلاة والسلام من الشروط في آخر الزمان أنه مذموم، سواء ذماً يقتضي التحريم، أو ذماً يقتضي الكراهة، فهناك من الأعمال ما يخبر به النبي عليه الصلاة والسلام لا تقتضي تحريمه كتطاول الناس في البنيان، ولكنه مذموم للركون إلى الدنيا، ولكن من نظر إلى ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة وجد أن الغلبة في ذكر أشراط الساعة أنها تكون مذمومة وفي دائرة الذم، ولكن هي مترددة بين التحريم والكراهة، وقد يخبر النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأفعال ما لا علاقة للإنسان به، كمسألة الزلازل، ومسألة الصواعق، وكذلك الطواعين ونحو ذلك، هذا مما لا شأن للإنسان به، ولكن يقال: إنه بما كسبت أيدي الناس.

كثرة موت الرجال بسبب الحوادث وعلاقته بأشراط الساعة

السؤال: هل تكثر الحوادث لكثرة الوفيات من الرجال؟

الجواب: من نظر إلى الإحصائيات يجد أن الرجال هم أكثر الناس يموتون في الحوادث، وذلك أنهم هم الذين يسافرون، والنساء الفطرة غلابة، وإن دعي إلى إخراجها من بيتها، ففطرتها غلابة أنها تريد الدعة والركون إلى القرار في البيت، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: (يقل الرجال وتكثر النساء) هذا في المسلمون، وتقدم الإشارة إلى أن الأصل فيما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة أنه في المسلمين والعرب، ولا ينقل ذلك إلا بقرينة ونص ظاهر، ويدخل في هذا الحوادث، ويدخل فيه موت الفجأة، ويدخل في موت الفجأة أيضاً الحوادث، والسكتات القلبية في الأمراض التي ظهرت في الناس بما يسمى بالسكري والضغط والكلسترول وغير ذلك من الأمراض التي تدب في الناس، فيصاب بموت الفجأة، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام الإخبار بموت الفجأة في جملة من الأخبار، منها ما رواه الإمام أحمد من حديث عامر الشعبيعن أنس بن مالك قال: (لا تقوم الساعة حتى يظهر موت الفجأة)، وقد جاء أيضاً من حديث أبي هريرةعليه رضوان الله تعالى من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة .

دخول مكبرات الصوت في المساجد في أشراط الساعة

السؤال: هل تدخل مكبرات الصوت الموجودة في المساجد في أشراط الساعة؟

الجواب: لا يظهر هذا، المكبرات تكون في الداخل، ورفع الصوت في المساجد المذكور في الخبر المراد به هو عدم توقير المساجد، ولا يتعلق بالميكرفون ويتعلق بغيره.

الكلام في أمور الدنيا داخل المساجد

السؤال: ما حكم الكلام في أمور الدنيا داخل المساجد؟

الجواب: ينبغي أن يعلم أن المساجد إنما بنيت لذكر الله، هذا هو الأصل، وما كان على سبيل التبع ولا على سبيل الاستقلال، بمعنى أن الإنسان ما يقول: يا فلان! موعدنا في المسجد نتحدث في البيع، فهذا ممنوع، لكنه إذا أتى الإنسان إلى الصلاة، ثم في دبر الصلاة تحدثوا في التجارات والأخبار وفي أمور الجاهلية، وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث جابر أنه قال: (كنا نتذاكر أيام الجاهلية في مسجد رسول الله ﷺ فنضحك، ولا يزيد النبي عليه الصلاة والسلام على أن يتبسم)، وتذاكر الأخبار في الجاهلية وذكر السلع والبيع والشراء من غير عقد فإن هذا مما لا بأس به على سبيل العرض لا على سبيل القصد.

لعن من أمر الرسول بلعنه

السؤال: هل يجوز لعن من انطبق عليها حديث (نساؤهم كاسيات عاريات، رءوسهن كأسنمة البخت، العنوهن فإنهن ملعونات)؟

الجواب: جاء عن رسول الله ﷺ في لعن الموصوف: (فالعنوهن فإنهن ملعونات)، وجمهور العلماء على حرمة اللعن بالعين، وهذا هو الأولى، ولكن لا حرج أن الإنسان يعرض، فإذا جاء مثلاً ذكر امرأة سافرة، أو ذكر شخص مرابي من غير التنصيص على اسمه فيقال: لعنة الله على آكل الربا. وإذا جاء ذكر ظالم يقال: لعنة الله على الظالمين، وإذا جاء ذكر امرأة أو شخص يأكل مال اليتيم يقال: لعنة الله على من أكل مال اليتيم، ونحو ذلك من غير تنصيص، يلعن الوصف، ولا يلعن الشخص بذاته.

تنزيل ما يقع من أحداث على أشراط الساعة

السؤال: ما قولكم في تنزيل ما يقع من أحداث على ما ذكر من أشراط الساعة؟

الجواب: على سبيل الاجتهاد من غير عمل لا حرج، يعني: شريطة ألا يتبع ذلك عمل، فلو أتتنا نازلة ويلزم من ذلك عمل، وعلى سبيل المثال ما حدث من الفتنة في عام ألف وأربعمائة ممن يدعي أنه مهدي، فنقول: هذا يلزم من عمل ويلزم منه اتباع، ويقال في مثل هذا: لا يجوز التنزيل، أما إذا كان لا يقتضي عملاً، كأن يقول: إن هذه الزلازل هي التي أخبر عنها النبي عليه

الصلاة والسلام، فهذا مما لا حرج فيه.

وقد اجتهد عمر بن الخطاب في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المسيح في قصة ابن صياد ، وقال: إنه المسيح الدجال، ومع وجود النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن لما كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على مأمن بوجود النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن النبي ﷺ يقول كما في مسلم من حديث أبي موسى : (أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)، ولكن الأمة في الأزمنة المتأخرة تكثر فيها الفتنة ويقل العلماء، ويظهر الجهلاء، ودعاة العلم.

ونحن نشاهد هنا التلبيس على مسلمات الشريعة العظيمة فكيف بقضايا النازلة، وثمة إشارة كما روى الإمام مسلم من حديث ابن مسعود ، وفيه: (نزل في الكوفة نازلة، قال: جاء رجل ينادي: يا ابن مسعود ! قامت الساعة، قال: فقام ابن مسعود وكان متكئاً، فقال: لا تقوم الساعة حتى لا تقسم فريضة)، وقوله عليه رضوان الله: (لا تقسم فريضة) إشارة إلى العلم هذا الرجل الذي جاء لعبد الله بن مسعود من التابعين، ولا نستطيع ننزع عنه وصف التابعي، لكنه بالنسبة لعبد الله بن مسعود لا شيء، ولهذا الرجوع إلى العالم في مثل هذه النوازل فإن هذه الأمور يحسم فيها العلماء، ولا يعقلها الجهال؛ ولهذا قال: لا تقوم، لماذا؟ لأنه يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما دام أن الفرائض موجودة في الأمة فلن تقوم الساعة.

وإذا تلاشى هذا العلم ولم تقسم فريضة فليعلم أن الساعة قد أظلت؛ لأن العالم يعرف تدرجات أشراط الساعة ويعرف أحوالها، ويعرف ترتيبها؛ بخلاف عمل عامة الناس؛ ولهذا دائماً نقول: ينبغي أن يفرق بين الرجل الصالح والعالم، وبين قارئ القرآن وحامل القرآن والعالم الفقيه؛ والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن الفتن في آخر الزمان تقع من ماذا؟ من القراء الذين حملوا القرآن في صدورهم احتقوا، وقلت مراراً: إن أخذ العلم جملة مفسدة، وحفظ القرآن جملة مما يضر مع نفعه.

والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عباس قال: (كنا عند عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى فجاءه رجل من العمال فقال: ماذا فعلت في قومك؟ قال: إنهم قرؤوا من القرآن كذا وكذا، فقال عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى: لو لم يفعل لكان حسن، قال: فنهره عمر بن الخطاب، قال: فذهبت مهموماً حتى دخلت داري، قال: ثم طرق الباب قال: أجب أمير المؤمنين، قال: فخرجت فقلت: يا أمير المؤمنين! والله ما أردت إلا خيراً، قال: ماذا قلت؟ وما الذي عنيت؟ قال: يا أمير المؤمنين! إنهم إذا قرءوا القرآن وأسرعوا فيه هذه المسارعة احتقوا)، يعني: كلهم يدعي أن الحق عنده، (وإذا احتقوا اختصموا، وإن اختصموا اختلفوا، وإن اختلفوا اقتتلوا)، أنا أحفظ القرآن، أنا أحفظ البخاري ، أنا أحفظ مسلم، ذاك يقول: أنا أحفظ كذا، ويظن أن المسألة بالحفظ، فتقع الفرقة والافتتان، يقول: (احتقوا) إشارة إلى بداية الفتنة بين المسلمين، كل يدعي أن الحق لديه، يقول: الحق عندي، وذاك يقول: الحق عندي، فإن احتقوا اختلفوا، وإن اختلفوا اختصموا، وإن اختصموا اقتتلوا.

وقد ظهرت الفتنة في أواخر عصر النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك في الأزمنة المتأخرة، وهذا ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا تقوم الساعة حتى يكثر القتل، فلا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قُتل، والقاتل والمقتول في النار)،

وقوله عليه الصلاة والسلام: (والقاتل والمقتول في النار) إشارة إلى أن السفك والدماء والقتل يكون في المسلمين لا يكون في الكفار؛ لأنه لو كان في الكفار لا يحتاج أن يكون قاتل ومقتول حتى يوجب النار، فهو داخل في النار ومات على كفره أصلاً، ولكن إشارة إلى أن المقتلة تكون بين المسلمين بسبب الاحتقاق، وكل يسوقه إما دعاة على أبواب جهنم، وإما سلاطين ظلمة، والناس رعاء، لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل، وتظهر مقاتل عظيمة جداً تحت إما مصالح دنيوية، أو دعاوى واحتقاق، كل يدعي أن الحق لديه، وليس لأحد من ذلك حق؛ ولهذا دائماً ينبغي الرجوع إلى أهل العلم في النوازل.

الفائدة من ذكر أشراط الساعة

السؤال: ما الفائدة من ذكر أشراط الساعة؟

الجواب: تقدم الكلام معنا أن أشراط الساعة تزيد من إيمان الإنسان، وتحثه على العمل؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (بادروا بالأعمال سبعاً)، وفي رواية: (ستاً)، المبادرة بالأعمال هي المقصد من ورود هذه الكوارث والهزات، منها: موت الفجأة والزلازل، والأمراض، والاقتتال والفتنة؛ لأن الإنسان لا يدري متى تنزل به الفتنة، فمأمور بالإكثار من العبادة والطاعة حتى يقبضه الله عز وجل على ذلك، وإذا استحكمت الفتنة في الأرض الأولى بالإنسان أن يعتزل.

وبهذا كفاية، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

الدرس الخامس

تتابع علامات الساعة الكبرى كتتابع انفراط العقد بعد قطعه، فما أن يحصل خراب يثرب وعمران بيت المقدس حتى تقع بين المسلمين والروم ملحمة عظيمة بالشام، وهذه الملحمة تكون تمهيداً لما بعدها من فتح القسطنطينية وخروج المهدي والقحطاني وعيسى ابن مريم.

إخراج الأرض من كنوزها

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد تقدم معنا فيما مضى ذكر جملة من أشراط الساعة أو جل أشراط الساعة الصغرى، ونكمل ما تبقى من أشراط الساعة الصغرى.

من هذه الأشراط: إخراج الأرض من كنوزها، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ على عدة معان، منها: ما رواه محمد بن فضيل ، عن

أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (تقذف الأرض بكنوزها كأمثال الأسطوان من الذهب والفضة، حتى يأتي القاتل فيقول: على مثل هذا قَتلت، ويأتي القاطع –يعني: رحمه– فيقول: على مثل هذا قطعت، ويأتي السارق فيقول: على مثل هذا قطعت يدي، فيدعونه ولا يأخذون منه شيئاً)، وقد جاء تخصيص ذلك من بعض البلدان، وهنا قد جاء على وجه العموم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ (أن الفرات يحسر عن جبل من الذهب، يقتتل عليه الناس، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، كل واحد منهم يظن أنه الناجي)، وقد يقال: ليس في هذا ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام على سبيل العموم؛ وذلك أن الأول كان فيه مقتل، وأما الثاني فكان فيه قتل، فيظهر أن ما كان في العراق من انحسار الجبل عن الذهب يكون في ابتداء خروجه؛ ولهذا قال في الخبر من حديث أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى قال: (يأتي القاتل فيقول: في مثل هذا قتلت)، يعني: قتلت الناس على هذا المال، وأما في حال الاستفاضة كأن الناس أمسكوه، قال: (ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)، وبه يعلم أن استفاضة المال وكثرتها تكون بعد انحسار الفرات عن جبل من الذهب.

الحكمة من تقييد نوعية الكنوز بالذهب والفضة

وثمة جملة من المسائل ينبغي الإشارة إليها في هذا، وهي أن مسألة المال المخصوص هنا في الذهب والفضة كما في الحديثين: في قوله عليه الصلاة والسلام: (تقذف بأمثال الأسطوان من الذهب والفضة)، هل هو مقيد بهذا النوع أم المراد بذلك نفاسة المال؟ هذا محتمل أن يكون على الذهب والفضة على سبيل التخصيص، ومن الاحتمال أيضاً أن يكون المراد به ما هو أوسع من ذلك من خروج الأرض كنوزها سواء كان من المعادن أو من غيرها، وإنما كان الإشارة إلى الذهب والفضة لأن كل ما كان له قيمة عند الناس إنما هو راجع عنه؛ ولهذا فإن النقدين الذهب والفضة به يتعامل الناس، وبه يتبايع الناس من جهة البيع والشراء، فالإنسان يشتري طعامه من ذهب، أو يشتري أرضه من ذهب، وربما يزرع بستاناً من ذهب، واستحالة ذلك في الأزمنة المتأخرة من انتشار العملات النقدية والعملات الورقية هي أصلها من الذهب والفضة، وأشير إلى هذا الأمر إلى أنه أصل كل شيء.

وربما يشار إلى الثروات التي تخرجها الأرض سواء من النفط ومشتقاته لكي يعضد الذهب والفضة، فمنها يستلهمون من جهة المشتقات القيمة ومن جهة التحصيل؛ والإنسان قد يريد أن يحوز الذهب والفضة ولو دفع ما لديه من أموال، ونص عليها تخصيصاً لأنها أبلغ للفهم، وقد يكون المراد من ذلك أي الذهب والفضة على سبيل التخصيص لشدة تعلق الناس بها.

عظم الأمل مع تعلق القلب بالمال

ومن هذه المسائل المتعلقة في هذا أن الإنسان كلما تعلق قلبه بالمال عظم أمله، حتى إنه يرى الهلاك العظيم البين الذي يراه ذو البصيرة بأدنى نظر وأدنى تأمل فلا يراه هلاكاً، وإنما يرى تلك النافذة في حائط الهلاك يرى أنه هو الناجي منها؛ لهذا قال النبي

عليه الصلاة والسلام في الخبر: (يهلك من كل مائة تسعة وتسعون، فيبقى واحد، كل واحد منهم يظن أنه الناجي) باعتبار ذلك الواحد، وهذا يدل على قوة الأمل في الناس، وإذا قوي الأمل في الناس لم ينظروا إلى أسباب الهلاك، فانغمسوا في الدنيا وشهواتها وملذاتها، وهذا من أعجب أمور الأمل وسعته عند الناس.

قلة قيمة السلعة المعروضة

ومن المسائل أيضاً في هذا الباب الإشارة إلى قاعدة أو فائدة يذكرها أهل الاختصاص وأرباب الأموال أنهم يقولون: إن السلعة إذا كثر العرض قل الطلب، وإذا قل الطلب قلت القيمة، وهذا بينها تلازم، وهذه قاعدة اقتصادية معروفة من هذا الخبر؛ لأن السلعة إذا انتشرت في الناس وأصبحت تعرض قل طلب الناس عليها، وإذا قل طلب الناس عليها قلت قيمتها، وإذا قلت قيمتها تدرج ذلك إلى انعدامها؛ لأنها توفرت في أيدي الناس كلهم.

استفاضة المال

وربما يكون هذا الخبر فيه إشارة إلى الفتنة العظيمة التي تدب في الناس حتى ينصرفوا عن المال، فلا يريدون ولا يمكن أن يريدوا المال، وهذا يتضمن ما جاء عن رسول الله ﷺ في حديث عوف بن مالك لما قال له: (أعدد ستاً بين يدي الساعة)، قال عليه الصلاة والسلام: (ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً)، وهذا الحديث متضمن للسخط أن الإنسان إذا أعطي المال مطالباً بالمزيد، وهنا في الخبر أنه يدع المال، مما يدل على وجود هذه الأحوال الثلاثة في المال:

الحال الأولى: هو بسبب انحسار الفرات عن جبل من ذهب، فيقتتل الناس عليه.

الحال الثانية: أن الناس يفيض فيهم المال، فيعطى الإنسان مائة دينار ويبقى ساخطاً للمزيد.

وبعد الاستفاضة وهي الحالة الثالثة حينما يستكثر المال عند الناس (يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)، يعني: أننا كنا نقتتل على هذا المال، ونتقاتل عليه، ونقطع الأرحام، وتقطع أيدينا عليه، ثم بعد ذلك يدعونه ولا يأخذون منه شيئاً.

والذي يظهر والله أعلم أن هذه تكون في زمن واحد؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (القاتل يأتي فيقول: في مثل هذا قتلت) يعني: أنه أغلب الأحوال، الأمر الثاني أن السارق يأتي (فيقول: في مثل هذا قطعت يدي)، أي: أنه بنفسه، يقول: قطعت يدي في مثل هذه الحال، مما يدل على أنه قد مر بهذه الأحوال الثلاثة في زمن واحد.

وربما يكون أن المراد على سبيل الإجمال، وفي آخر الزمان في زمن المهدي وعيسى .

واستفاضة المال ليس المراد منها الاستفاضة العينية للمال، وإنما في عيون مالكيها يرونها كثيرة، ومعلوم أن الإنسان كلما قل الأمل في قلبه ولو ملك ديناراً ظن أنه ملك الدنيا وحازها، بخلاف لو تعلق المال بقلبه لو ملك المثاقيل لظن أنها قليلة، وهذا يرجع إلى طبع الإنسان ويرجع إلى بذل المال من جهة عدده؛ ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (لو أعطي ابن آدم

واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملئ جوف ابن آدم إلا التراب)، وهذا يدل على أن الإنسان إذا تعلق بالمال وعظم أمله ولو كان المال كثيراً فإنه يطلب المزيد.

وهذا فيه إشارة إلى ضعف الأمل، والفتنة إذا عظمت في حياة الناس، وكثر في ذلك القتل، وانشغلوا عن المال أصبح الناس منشغلين بما يعظم عندهم وقت الفتنة، وهذا يعلم في حال المعارك التي تقع في كثير من البلدان، ففي حال الفتن التي تتعلق بالدماء والأعراض، تجد الناس لا يلتفتون إلى الأموال، وإنما كل يذود عن نفسه وعن عرضه، وهذا معلوم مشاهد.

ويظهر لي والله أعلم أن استفاضة المال بهذه الصورة والكثرة حتى إن الأرض تقذف ما فيها من الذهب والفضة على شكل الإسطوان، وهذا متضمن الكثرة، ومتضمن أيضاً صفة الخروج أن يكون كالحجر، وقد يكون هذا متضمناً للزلازل وانشقاق الأرض ونحو ذلك حتى يستهين الناس بهذا، فيذهلون من انشقاق الأرض عن كسب المال، وكل ذلك محتمل، سواء ما تقدم الإشارة إليه من جهة كم المال، أو من جهة الأمل الذي يتعلق في قلوب الناس.

المراد بالعدد في قوله: (يقتل من كل مائة تسعة وتسعون)

وما جاء في هذا الحديث عن رسول الله ﷺ في قوله: (يقتل من كل مائة تسعة وتسعون) هذا ليس على ظاهره، فيما أرى، والله أعلم أن المقتلة ليست المراد بها هذا العدد، والعرب تطلق أمثال هذه الأعداد سواء كان التسعين، أو التسعمائة، أو السبعين تريد بذلك التكثير، والدليل على ذلك فيما يظهر والله أعلم ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يقال لآدم يوم القيامة: يا آدم! أخرج بعث النار، قال: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة)، وقد جاء في بعض الأخبار: (من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون)، وجاء في بعض الأخبار: (من كل مائة تسعة وتسعون)، فالحديث الثاني أنه في كل ألف يكون عشرة في الجنة وتسعمائة وتسعون في النار، وأما في اللفظ الآخر وهو الأشهر أنه يكون في الجنة واحد، ومن الألف تسعمائة وتسعون إلى النار، وثمة فرق بين هذا العدد مما يدل على أنه ليس المراد بذاته، وإنما المراد التكثير، أي: أن الناس يقتتلون، فيرى الإنسان الناس صرعى أمامه على هذا المطلب.

تقديم المال على حفظ النفس

وفيه أيضاً من الفوائد التي تتعلق بهذا: أن الإنسان لطمعه يقدم المال على النفس؛ على حفظ نفسه، فإذا طلب أحد أخذ المال دفع عن نفسه؛ ولهذا ترى من هذه الثمرات ما تقدم الإشارة إليه في مسألة الزهد بالجهاد، والذود عن حياض الدين والملة، وهو فيه مظنة إزهاق النفس، وإذا كان الإنسان يرى الناس صرعى أمامه لأجل دنيا، ويريد دنيا، فهو من باب أولى لا يكون من أهل الدنيا، فإن هذا من مظنة الهلكة، والهلكة في سبيل الله أقل من الهلكة على هذا المال، فإن العدد ذكر هنا أنه كثير، بخلاف المقتلة التي تكون في سبيل الله والعدد في ذلك أقل بكثير، مما يدل على أن الناس إذا تعلقت قلوبهم بالدنيا والمال قل حبهم للقتال في سبيل الله، وانصرافهم إلى اللهو في الدنيا ومتعها في سائر الأعذار، وتقدم الإشارة إلى هذا المعنى.

عمران بيت المقدس وخراب يثرب

ومن أشراط الساعة وعلاماتها ما رواه الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي من حديث عبد الرحمن بن ثوبان عن أبيه، عن مكحول ، عن جبير بن نفير ، عن مالك بن يخامر ، عن معاذ بن جبل أن سول الله ﷺ قال: (عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال).

وفي هذا الحديث تسلسل لمجموعة من الأحداث ينبغي أن تضبط على الترتيب؛ حتى لا يقع خلط في فهم بعض أشراط الساعة وعلاماتها.

عمران بيت المقدس

أول هذه الأشراط التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام (عمران بيت المقدس) وجاء بعده متلازماً مع خراب يثرب وهي المدينة، والمراد بالخراب هو الهجران، وقد جاء تفسير ذلك في البخاري من حديث أبي هريرةأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لتتركن المدينة على أحسن ما تكون)، وجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً من حديث أبي هريرة وغيره في المسند وغيره، قال: (لتتركن المدينة حتى لا يغشاها إلا الكلاب فيغذي -يعني: يبول- على السواري)، يعني: سواري مسجد رسول الله ﷺ، وهذا متضمن أن عمران بيت المقدس بالمباني، وكذلك الناس طمعاً لا في دين، وإنما الطمع في دنيا، وهذا يدل على انفتاح الخير في أبواب الشام بعد ما كان الانفتاح في جزيرة العرب، وكذلك في المدينة على وجه الخصوص؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (عمران بيت المقدس خراب يثرب)، أي: أن علامة عمران بيت المقدس هو خراب المدينة.

المقصود بعمران بيت المقدس

ويظهر في هذا جملة من المعاني:

أولها: العمران المادي، وهذا ظاهر في هذا الخبر.

ثانياً: حصول الخلافة في بيت المقدس، والدليل على هذا ما جاء عند أبي داود وغيره من حديث ضمرة ، عن ابن زغب ، عن عبد الله بن حوالة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يا ابن حوالة ! إذا رأيت الخلافة في بيت المقدس فانتظر الزلازل، والبلابل، والأمور العظام، والساعة حينئذٍ كيدي من رأسك. ووضع رسول الله ﷺ يده على رأسه)، وإسناده لا بأس به، وقد جاء من طرق متعددة عن عبد الله بن حوالة ، وعبد الله بن حوالة من أهل حمص وممن بقي فيها، واعتماده لفقه هذه المسائل دليل أخذ فقهاء حمص عن ابن حوالة ، وهذا الخبر مما هو مقبول عند أئمة النقد.

والعمران على نوعين: عمران خلافة، تكون خلافة المسلمين سواء كانت على استقامة أو اعوجاج، ويظهر أنها على اعوجاج، وليست على استقامة في مثل هذه الحال؛ لأن هذا متضمن لخراب يثرب، والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ قال في حديث آخر كما في مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة : (ليقولن الرجل لقريبه وابن عمه: هلم إلى

الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، إن المدينة لتنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد)، وفي هذا الإشارة أن الناس يتواصون حتى وإن كانوا في المدينة (هلم إلى الرخاء) يعني: إلى الشام، ويتركون بذلك المدينة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)، وهذا فيه إشارة إلى أن أكثر الناس يذهبون إلى الشام وبيت المقدس طلباً للدنيا، وطلباً للمتع، وعمرانها بالمادة، وكذلك الملبس والمأكل والمشرب ونحو ذلك.

أحوال الشام من جهة الفتنة

وهذا لا يعني أن الشام ليست بموضع أرض مباركة، فقد جاء بيان أن الشام من الأرض المباركة في جملة من الأحاديث، وتقدم الكلام عليها على وجه الخصوص في محاضرة بعنوان (المسجد الأقصى فضائل ومسائل) يحسن الرجوع إليه. ولكن علاقة الشام بالنسبة لهذا الموضوع من جهة الفتنة على أحوال متعددة:

الحال الأولى: إذا كان يتضمن عمران بيت المقدس خراب المدينة فهذه مذمة وليست بمحمدة، وعمران بيت المقدس يظهر أنه بعد فتح المسلمين لبيت المقدس، ويكون بعد ذلك سعة في المال وترك للمدينة، والمدينة هي أفضل البقاع بعد مكة عند عامة العلماء وجمهورهم.

الحال الثانية: في حال الفتن والملاحم والقتال فإن الذهاب إلى الشام أفضل من أي بلد آخر، بل أنه أولى من الرجوع إلى مكة والمدينة، لا للفضل، وإنما أن الشام هي أرض المحشر، وأرض الملحمة بين المسلمين والروم، والدليل على ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ كما في الصحيح من حديث عوف بن مالك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له: (أعدد ستاً بين يدي الساعة)، قال عليه الصلاة والسلام في هذا الخبر: (ثم يكون بينكم وبين بني الأصفر عهد، ثم يغدرون، فيأتونكم على ثمانين غاية، على كل غاية مائة وعشرون ألفاً)، يعني: مائة وعشرون فرداً من المقاتلين، وهذا قريب من المليون إلا يسيراً، وهذا عدد مبالغ فيه جداً لا يمكن إلا مع التجييش الكثير المتضافر، وهذا الحديث في صحيح الإمام البخاري ، وهو من أصح الأحاديث في أشراط الساعة، ويكون ذلك في أرض الشام.

خروج الملحمة بالشام وما يلحقها من علامات

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: (وخراب يثرب خروج الملحمة) والملحمة تكون بالشام.

وقد جاء دليل ذلك على الصراحة عن رسول الله ﷺ في جملة من الأحاديث، قال عليه الصلاة والسلام: (تقاتلون الروم على نهر الأردن، أنتم شرقيه وهم غربيه)، وهذا دليل على أن المعركة تكون في الشام.

المراد بالشام جغرافياً

والمقصود بالشام من أطراف العراق من جهة الغرب، وكذلك ما تسمى بسوريا بجميع أطرافها وبلدانها، وكذلك الأردن ولبنان

وفلسطين، وشيء يسير من شمال الجزيرة العربية داخلة في بلاد الشام.

وهذه التقسيمات الجغرافية الحديثة لا صلة لها بالأمصار النبوية التي تذكر في الأحاديث، ومعلوم أن التقسيمات الإقليمية التي تحدث سواء من أبواب التنظيم السياسي، أو التقسيمات الدولية وغير ذلك لا شأن لها، ومعلوم أن الحجاز يمتد إلى تبوك بإجماع أهل المعرفة من أهل الإسلام، فتبوك تكون داخلة في أبواب الحجاز إلى المدينة، وحكمها في سائر الأحكام كحكم الحجاز حكماً واحداً، وإذا أخذت إلى جهة المشرق بدأت ودخلت في الشام، وإذا نزلت يسيراً دخلت في بوابة مصر من جهة الشمال.

والمقتلة والملحمة التي تكون بين المسلمين هي بينهم وبين الروم، وهي قريب من نهر الأردن، وتمتد إلى دمشق ببلدة يقال لها الغوطة، وقد جاء هذا عن رسول الله ﷺ كما في المسند والسنن وغيرها، والغوطة هي بلدة قريبة من دمشق مما يدل على أن الصراع يمتد في هذه المنطقة إلا أنهم لا يقدرون ولا يصلون إلى جزيرة العرب في ظاهر النصوص.

تمهيد الملحمة لغيرها من الأحداث

وهذه الملحمة التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام هي تكون قبل فتح القسطنطينية، بل هي تمهيد لها، وقبل خروج المهدي والقحطاني وعيسى ابن مريم، فهي كالتمهيدات له.

وقيل: إن بين الملحمة وبين ما يأتي من الفتوحات وخروج المهدي سبعة أشهر، ومعلوم أن المهدي هو في زمن عيسى يأتي المهدي ، وقيل يتبعه بعد ذلك القحطاني، ثم يأتي بعد ذلك عيسى، والمقطوع به أن المهدي هو قبل عيسى.

وهل يكون المهدي معقباً لعيسى؟ ظاهر النصوص تدل عليه أنه يبدأ بخروج المهدي ، ثم بعد ذلك يخرج عيسى عليه السلام ويوافق المهدي .

وهل هو الذي يصلي بالناس أم القحطاني؟

النصوص في ذلك متقاربة ومحتملة، والذي يظهر والله أعلم أن الذي يصلي بالناس أنه أمير المؤمنين في زمنه، ولكن ليس عيسى عليه السلام.

والملحمة هنا هي الفيصل بين أهل الإسلام، ثم تمتد هذه الملحمة حتى تصل إلى فلسطين وفتح بيت المقدس، وهو الفتح الأخير.

نطق الشجر والحجر وغيرهما

ويتبع هذا جملة من علامات الساعة التي تكون كالعقد، انفراطاً وتمهيداً لنشر الخير في الأرض، وهذا قد جاء عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يختبئ اليهودي خلف الشجر والحجر، فيقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله)،

يعني: أن من ورائه يختبئون خلف الشجر والحجر من قوة المسلمين وسطوتهم.

وفي هذا أيضاً جملة من المسائل التي تكون متداخلة في هذا الباب؛ أن ما جاء في بعض الأحاديث من نطق الشجر ومن نطق السوط وشراك النعل والفخذ أنه في هذا الزمان لا قبله؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع)، يعني: تتحدث كما يتحدث الناس (وعذبة سوط الرجل، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده)، وهذه الإخبارات هي مقترنة بما يظهر بإخبار الشجر والحجر في ذلك الزمن (يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله) .

تقديم القتل على الأسر والغنيمة

وفيه أيضاً أنه في آخر الزمان القتل هو الشريعة الراجحة على الأسر والغنيمة؛ لأنه لا ينبغي للمسلمين أن يلتفتوا في ذلك الزمن إلى مغنم وغيره، وجاء تفسير ذلك في صحيح الإمام مسلم من حديث يسير عن عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى أنه سمع رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقسم ميراث، ولا يطمع في غنيمة). وقيل في تفسير ذلك جملة من المسالك، منها: أن المواريث تكون قد جهلت في هذا الأمر، وهذا متجه، وقد جاء في ذلك جملة من النصوص عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا يقول الناظم الرحبي في منظومته:

وأنه أول علم يفقد في الأرض حتى لا يكاد يوجد

يعني: علم الفرائض محتمل أن يكون محتملاً لهذه الحال.

ومحتمل أن المراد من ذلك أن الناس منشغلون من شدة القتل: من الوارث ومن المورث، هذا قتل، وهذا قتل؛ وجاء من حديث عبد الله بن مسعود قال: (إن أبناء الرجل الواحد مائة، لا يبقى منهم إلا واحد)، فلا يعلمون من الوارث ولا من المورث؛ لانتشار القتل، ولا يطمعون في غنيمة؛ لشدة المصائب والبلايا من قتل فلان وفلان ونحو ذلك، فيكون الأمر بين الناس مشاعاً.

ويظهر والله أعلم أن هذا المغنم الذي جاء في حديث عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى هو بعد ما جاء عن رسول الله ﷺ قال: (أن تتخذ الغنيمة مغنماً، والفيء دولاً)، يعني: أن هذا في ابتداء الأمر.

أحوال الغنيمة في آخر الزمان

والغنيمة في آخر الزمان على حالين:

الحال الأولى: أن تكون مغنماً، فيحرص عليها فيسهمون في الجهاد لأجلها، فيتقاتلون لأجل الكسب، وفي هذا هل يكون الجهاد شرعياً أم لا؟ يقال: إن هذه المسألة لا تخلو من حالين:

الحال الأولى: أن الإنسان إذا قصد النية لله سبحانه وتعالى وصاحبها شيء من مطامع الدنيا جاز ذلك، والدليل على هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحدث أصحابه عن القتال فقال: (من قتل قتيلاً فله سلبه)، يعني: فله ماله كالشرط والجزاء،

فيكون هذا في حال المقايضة، فيجوز للإنسان أن يقتل شخصاً أكثرهم مالاً طمعاً بما لديه من مال، فيقصدون من يحمل من السلاح والعتاد أكثر، لأن ما دونهم يهون.

وهذا فيه مقاصد متعددة:

المقصد الأول: أن الإنسان يأخذ من المال ما يتقوى به لصالح دينه ودنياه.

المقصد الثاني: أن في قتل من بيده كثيراً من المال مضرة على أهل الشرك والعناد، فإن في ذلك إزهاقاً للأنفس النفيسة فيهم، وتقليلاً للمال الذي كان عندهم، ورفد ذلك بأهل الإسلام، وهذا لا يناقض النية؛ ولهذا (النبي عليه الصلاة والسلام كان يجعل للفارس سهمين وللراجل سهماً واحداً)، وفي هذا تأنيس للإنسان أن يقاتل في سبيل الله ولو أخذ شيئاً من مغانم الدنيا.

الحال الثانية: أن يقصد الإنسان المغنم بذاته كحال الأجراء، وهذا محرم ولا يجوز، وهذا ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام (أن من أول من تسعر بهم النار ثلاثة: ومنهم رجل قاتل في سبيل الله حتى يقال أنه جري)، وهذا من أخطر الأمور التي بين الشارع حالها، وهذا يختم له ما كان عليه.

وقد جاء في بعض الأخبار وفيها ضعف أن (الجهاد في سبيل الله في آخر الزمان يكون أجرة)، يعني: يدفع للإنسان مال حتى يقاتل في سبيل الله.

وفي هذا مجموعة من المسائل:

منها أنه لا حرج على المسلمين وعلى ولي الأمر إذا لم يستطع فتح الثغور وأن يجاهد في سبيل الله إلا بدفع الأجرة، ومن خبثت نيته أنه لا حرج عليه في تحقيق المقصد والأجر، والدليل على هذا ما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر)، وهذا ظاهر إذا تحقق أمر الدين ولو بإزهاق نفس الفاجر، فإن هذا من المقاصد المحمودة إذا لم تصحح نية الناس، ولكن لا يقال: إن المؤمن يدفع له المال فتفسد نيته حتى يصلح أمر الإسلام لفساد نيته، يقال: إن الشريعة جاءت لإصلاح الأفراد، وجاءت لإصلاح المجتمعات وإصلاح، فينبغي أن يحافظ على ذلك المؤمن، لكن إذا لم يتحقق ذلك إلا على هذا النحو فإنه لا حرج عليه.

غدر بني الأصفر بالمسلمين

وفي هذا إشارة إلى أن المسلمين يتصالحون ويتعاهدون مع بني الأصفر، فيقاتلون عدواً دونهم، وقد جاء هذا في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، مما يدل على جواز المصالحة مع المشركين لقتال عدوهم، ولو كان مشتركاً من جهة العداوة بين المسلمين الكفر، وهذا أمر جائز، يشير إلى هذه المسألة التي تقدم الإشارة إليها، ثم يكون الغدر بعد ذلك، يكون في بداية الأمر صلحاً، ثم يقاتلون عدواً دوننا، يعني: دون الروم بيننا وبينهم، الله أعلم بحاله، وفسره كثير من العلماء بجملة من

الاجتهادات التي لا دليل عليها، ولا ينبغي أن يتعلق الإنسان بها.

فيكون بعد هذه المقتلة وهذا التحالف بين المسلمين والروم غدر الروم على المسلمين وهم أهل غدر، فيأتون إلى المسلمين على حين غرة، والدليل أنه على حين غرة أنهم يأتون في بلاد الشام، وبلاد الشام هي من بلاد المسلمين، ولا يمكن أن يأتي هذا العدو ثمانين غاية على كل غاية مائة وعشرون ألفاً، إلا أن يكون ذلك على حين غرة ومفاجأة من المسلمين، سواء أن يمكنوا من بلاد المسلمين بدعوى حماية المسلمين، أو قتال عدوهم من دونهم، فيخرجون لذلك وهم يريدون أهل الإسلام.

ومن جهة الأصل فإن مطامع أهل الكتاب من اليهود والنصارى هي مطامع دنيا، ويظهر أن غدرهم بالمسلمين هو لأجل مطمع في دنياهم، وهذا ظاهر.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (ثم خروج الملحمة) هي بعد خراب يثرب، وبعد عمران بيت المقدس، ثم تكون الملحمة بين المسلمين والروم، وبه يعلم أن من ينتظر هذه الملحمة ولم يأت خراب المدينة، ولا عمران بيت المقدس فإنه يستعد لأمر ليس هذا محله، ثم تكون الغلبة لأهل الإسلام، والدليل على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: (وخروج الملحمة فتح القسطنطينية)، يعني: أن المسلمين يفتحون القسطنطينية بعد ذلك، وتكون الغلبة لهم، وحماية ثغور الإسلام حتى يصلوا إلى ما يسمى بأوروبا في زمننا الحالي، وهذا مما وعد الله عز وجل به المسلمين.

خروج الدجال

قال عليه الصلاة والسلام: (وفتح القسطنطينية خروج الدجال)، وخروج الدجال هو مصاحب لمجموعة من أشراط الساعة متتالية، وبينها جملة من التتابع، فالمهدي مصاحب لخروج الدجال، وكذلك القحطاني، ويأتي عيسى عليه السلام بعد ذلك كله، فيقتل المسيح الدجال عند بيت المقدس كما يأتي الكلام عليه في أشراط الساعة الكبرى.

وفي هذا الحديث من إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بخروج الدجال لا يعني أنه يتخللها مجموعة من أشراط الساعة الأخرى، وإنما تكون هي على هذا الترتيب وعلى هذا النسق، بل يقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يشير إلى ما كان علماً من أمور الفتن.

إخفاء ذكر الدجال في القرآن وبيانه في السنة

والفتنة في ذكر بعض أشراط الساعة والتكثير منها قد تظهر للبعض وقد لا تظهر، فمثلاً حينما ننظر إلى الدجال نجد أن الله عز وجل يقص لك خبره في كلامه سبحانه وتعالى على سبيل الخفاء، وإنما جاء في كلام بعض المفسرين تفسير بعض الآي أن المقصود بها الدجال، وهذا محتمل في قوله سبحانه وتعالى: ((يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ))[الأنعام: 158]، فبعض المفسرين كعبد

الله بن عباس و مجاهد وغيرهما أن المراد بذلك الدجال، وهذا محتمل.

والله سبحانه وتعالى ذكر جملة من أشراط الساعة من انشقاق القمر وقد مضى وزال أمره، وهو من الأمور العظيمة والصادقة على نبوة محمد ﷺ، وذكر الدابة ويأجوج ومأجوج، وأعظم من ذلك كله هو الدجال ؛ لأنه قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ما من شيء منذ أن خلق الله آدم أعظم أمراً إلى قيام الساعة من الدجال)، ومع ذلك لم يرد ذكره في كلام الله سبحانه وتعالى على سبيل الصراحة؛ مما يدل أن أمره يحتاج إلى مزيد بيان، وهو في كلام رسول الله ﷺ من جهة التفصيل أظهر وأبين، وكلام الله سبحانه وتعالى يأتي على سبيل الإجمال.

فوائد بيان أمر الدجال في السنة أكثر من القرآن

وفي هذا جملة من الأمور والفوائد:

من هذه الفوائد أنه ينبغي أن تقدس السنة وتعظم كما نقدس معاني القرآن، وذلك أن السنة من الوحي؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4]، وإذا ترك الناس السنة وتعلقوا فقط بالقرآن ضلوا؛ لأن السنة هي المبينة للقرآن، فإذا كانت أعظم مصيبة على البشرية منذ أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة ادخرها الله جل وعلا على لسانه نبيه دل على تعظيم هذه السنة وجلالة قدرها.

ومعلوم أن الشيء يعرف أمره بمضمونه ومحتواه، وما يدفع من الشر، وما يدل على الخير، فإذا كانت سنة رسول الله ﷺ تدل على هذا القدر العظيم من دفع الشر دل على وجوب التمسك بها، هذا في زمن من يتأول السنة عن مرادها، ولو تليت آي القرآن وآي السنة البينة الظاهرة التي أظهر تفصيلاً وأسهب تدقيقاً وبياناً من مجمل القرآن.

والمقصود قد فصل الله جل وعلا في كلام رسول الله ﷺ، وهناك من يقول: إن فيمن يقول: إنك لم تأت بجديد ولم تأت بأمر بين يزيل هذا الإشكال؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتشبث بظواهر الأدلة من كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله ﷺ، وألا يلتفت إلى أقوال الناس، وإن قالوا: هذا ليس بدليل، وليست بينة؛ لهذا قال الله سبحانه وتعالى حاكياً عن حال قوم هود مع هود حينما أنزل الله جل وعلا عليهم الحجج: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ [هود:53]، إذاً كان كلام الله جل وعلا ليس ببينة، وأظهر بياناً، وما أرسل الله جل وعلا من رسول إلا بلسان قومه، ثم هؤلاء يقولون: ما جئتنا ببينة، من الذي يأتي ببينة حينئذٍ أقوى بياناً من رب العالمين، ليعلم أن هذه من الحجج الباطلة التي يعلمون الحق في قلوبهم، ولكنهم يجحدونها كما فعل ذلك كفار قريش؛ ولهذا قال الله جل وعلا في كتابه العظيم حاكياً حال كفار قريش: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:14]، يعني: يجحدون بهذا الحق ولهذا يخرج يوم القيامة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم في سورة الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الأنعام:28] يخفون ذلك الحق في قلوبهم، لكنه يظهر عند سطوة العذاب وحينما يعرضون على النار.

وينبغي على طالب الحق من الوحي إذا ظهر له الدليل وتمكن من قلبه؛ لا عليه من أي صاحب دعوى؛ أنك لم تقم الدليل ولم

تقم البينة، أقمنا البينة والحجة، وإن لم تتبع، فلك أسلاف قد ضلوا وهلكوا، كما ضل قوم هود وقوم صالح وثمود وقوم موسى وعيسى وكفار قريش، حينما أنزل الله جل وعلا على أنبيائه الحجة والبيان من كلامه سبحانه وتعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

خروج القحطاني

ومن أشراط الساعة: خروج رجل من قحطان، وهذا قد جاء في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي سعيد أن رسول الله صلى الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)، وفي هذا جملة من المسائل:

ظلم القحطاني وعدله

المسألة الأولى: أما اسم هذا الرجل: فلا يثبت فيه شيء، وكذلك في موضع خروجه لا يثبت فيه شيء، وكذلك في ظلمه أو عدله لا يثبت في ذلك شيء إلا جملة من القرائن، ومن هذه القرائن قوله: (يسوق الناس بعصاه)، فقيل: إن المراد بذلك هو إشارة إلى ظلمه وجوره، وإلا الناس إذا كانوا يساقون طواعية عن هداية لا يحتاجون إلى عصا وسياط، وهذا فيه إشارة إلى الظلم.

ومن قرائن ذلك ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام قال: (صنفان من أمتي لم أرهما قط: أقوام معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس)، وهنا قال: (يسوق الناس بعصاه)، وهذا فيه إشارة إلى أن سوق الناس بالعصا إشارة إلى الظلم والبغي، والظلم والبغي ليس من سيما ومن علامات أهل الصلاح، ومن علامات أهل الصلاح أن يساق الناس وأهل الإيمان بالطاعة والإيمان، وقد يؤطرون في ابتداء الأمر أطراً، ولكن يكون منهم من لا يحتاج إلى سوط، ولما كانوا على هذه الحال دل أنه يسوقهم إلى شيء من مصالح الدنيا.

وجاء في بعض الروايات أنه رجل صالح، وفي ذلك أنه قد روى نعيم بن حماد في كتابه الفتن من حديث ابن قيس بن جابر عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج رجل من قحطان وهو بعدالمهدي وهو رجل صالح)، وهذا الخبر مردود، وقد جاء في كلام بعض التابعين عند نعيم بن حماد أيضاً من قول عطاء بن المنذر أنه يكون بعد المهدي وهو رجل صالح، وهذا لا يصح.

الاختلاف في كون القحطاني هو الجهجاه أو المهدي

واختلف كلام العلماء في هذا الرجل من قحطان هل هو منفرد غير المهدي وغير الجهجاه الذي يخرج؟

قيل: إنه الجهجاه، وقيل في قول ضعيف: إنه المهدي، وهذا روي عن ابن سيرين بإسناد فيه ضعف، ولا يصح، وبه يعلم أنه لا يصح في المرفوع ولا الموقوف لا عن تابعين ولا عن أتباعهم بإسناد صحيح أن القحطاني هو المهدي ، ولا أن القحطاني هو الجهجاه، ولا أن الجهجاه هو المهدي، فلا يصح في ذلك شيء، وإنما هي نصوص متباينة.

والذي أجزم به أن القحطاني ليس هو الجهجاه، وذلك أن قحطان قبيلة، والجهجاه من الموالي، فقد جاء في صحيح الإمام مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من الموالي يقال له: جهجاه)، والموالي الأصل فيهم أنهم لا ينتسبون، وقول النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح: (رجل من قحطان) يعني: أنه على ظاهره ينتسب إلى هذه القبيلة، ويقر له بذلك الأمر، وهناك قال: إنه من الموالي، وقد أشار بعض العلماء إلى احتمال أن يكون القحطاني هو الجهجاه، وفي ذلك نظر على هذا التعليل.

الأوجه الدالة على أن القحطاني من أهل الظلم

ويظهر من قوله عليه الصلاة والسلام: (يسوق الناس بعصاه) أنه من الظلمة، وليس من أهل العدل، وهذا من وجوه:

الوجه الأول: تقدم الإشارة إليه من الصنفين الذين معهم السياط.

الوجه الثاني: أن الأصل في أشراط الساعة إذا ذكرت أنها في العرب، وفي مثل هذا الزمان يكون أهل الإيمان متوافرون؛ لأن خروج القحطاني متزامن مع خروج المهدي وقيل بعده، وفي هذا الزمن أهل الإيمان متواجدون لا يحتاجون إلى السوق بالعصا، يحتاجون إلى جمع الناس بالكلمة، ولما كانت يخاطب به العرب دل على أن المراد بذلك في قوله: (يسوق الناس) أي: يسوق المسلمين والعرب، ولا يسوق العجم، وهذا ظاهر، وأما لو كان يسوق العجم ودلت قرينة على ذلك لاحتمل أن يكون من أهل العدل والصلاح.

ويظهر في بعض النصوص أن خروج القحطاني يكون بعد المهدي كما جاء عند نعيم بن حماد، وفي ذلك ضعف، لكن قرائن النصوص تحتمل هذا الأمر.

وخلاصة هذا الأمر أنه لا ينبغي الخوض في تفاصيل القحطاني؛ لا من جهة اسمه، ولا من جهة البلد التي يخرج فيها، ولا من جهة أيضاً ما هي دعواه في الناس، وإذا خاض فيها الإنسان يخوض فيها من غير عمل؛ لأن الخوض في تفاصيل ذلك مع العمل ربما يورث مفاسد في الدين والدنيا، وإلا فخبر القحطاني من الأحاديث الصحيحة في الصحيح.

وثبوت خروج القحطاني أثبت إسناداً من خروج المهدي ، وذلك أن البخاري قد أخرج حديث القحطاني، ولم يخرج شيئاً لا هو ولا الإمام مسلم في حديث المهدي مع شهرة أخبار المهدي عند أرباب الفتن، وعند عامة الناس.

خروج المهدي

ومن أشراط الساعة في ذلك: خروج المهدي ، وخروج المهدي في هذا هو مشابه لخروج عيسى.

و المهدي خروجه قد صححه جماعة من الأئمة، ومن أول من جزم به وقطع من السلف سفيان الثوري ، وصححه واحتج بالأحاديث التي أوردها جماعة من العلماء كالدارقطني و البيهقي ، وجماعة من المتأخرين كابن كثير و ابن حجر و الذهبي وغيرهم

على صحة الأحاديث.

حال الأحاديث الواردة في المهدي

وقد جاء في ذلك جملة من الأحاديث؛ أصحها ما جاء عند الإمام أحمد من حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى قال: (يخرج الله في آخر الزمان رجلاً من أهل بيتي؛ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وأرجو كما ابتدأها الله بنا أن يختمها بنا)، يعني: من أهل بيته عليه الصلاة والسلام.

وقد جاء في بعض الأخبار أن اسمه كاسم النبي عليه الصلاة والسلام، وقد جاء في جملة من الأحاديث وإسنادها أيضاً لا يستقيم، وقد سئل الإمام أحمد عن أصح شيء في المهدي، فقال: حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى، وهذا أمثل شيء في هذا الباب.

موضع خروج المهدي

و المهدي إذا قلنا أنه تمهيد لخروج عيسى وتمهيد لأشراط الساعة الكبرى فهل ثمة دليل على موضع خروج المهدي في زمن بعينه أم لا؟

جاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام ما يسمى بالرايات السود، قال عليه الصلاة والسلام في حديث ثوبان : (إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاستقبلوها، فإن فيها عبد الله المهدي)، وهذا إسناده ضعيف، ولا يصح هذا الحديث عن رسول الله ﷺ؛ لأن في إسناده انقطاعاً.

وقد جاء من غير هذا الوجه ذكر الرايات السود، كما عند الطبراني وغيره من حديث يزيد بن أبي الزياد عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى بنحوه، أو بمعناه، وهذا لا يصح؛ ولهذا قال: (والله لو جاءني يزيد بخمسين يميناً قسامة في هذا الخبر ما قبلته منه)، يعني: أن هذا الخبر يرويه إبراهيم ، و إبراهيم له أصحاب كثر، فأين الذين ينقلونه عنه، وكذلك علقمة أيضاً أين الذين ينقلونه عنه، وكذلك عبد الله بن مسعود مع ما الحاجة لمثل هذا المعنى.

وأمثل ما جاء في ذلك عند الحاكم في مستدركه من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وقد أعل حديث الرايات السود الإمام أحمد عليه رحمة الله في علله، وأعله بعض الأئمة كإسماعيل بن علية ، وبه يعلم أنه لا يصح في الرايات السود خبر عن رسول الله ﷺ، وما جاء في ذلك فهو من الأحاديث الضعيفة.

وبه يعلم أن الجهة أو الناحية أو البلد التي يخرج منها المهدي لا يصح منها شيء.

القول بإعلال أحاديث المهدي

ولم أعلم أحداً من الأئمة من المتقدمين من أئمة النقد من أعل أحاديث المهدي ، وقال: لا يصح منها شيء، وإنما هو في كلام بعض الأئمة المتأخرين، وأظهر هذا القول ابن خلدون في كتابه المقدمة، وقال: إنه لا يكاد يصح منها إلا القليل. وجاء في ذلك جملة من الأحاديث نحو عشرين خبراً في أحوال المهدي ومواضع خروجه، ولا يصح من ذلك إلا الشيء اليسير، وأصح ما جاء في ذلك حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ.

والثابت في ذلك أنه من ذرية النبي عليه الصلاة والسلام، وهو أقرب إلى أن يكون من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، واسمه كاسم النبي عليه الصلاة والسلام، واسمه مُحَمَّد بن عبد الله .

انتساب المهدي لأهل البيت

وينبغي أن يعلم أن في هذه المسألة في خروج المهدي وانتسابه للنبي عليه الصلاة والسلام جملة من الأمور:

الأمر الأول: أن كون الانتساب إلى البيت لا يعني الانسياق خلف الدعوى، ما الدليل على هذا؟

الدليل أنه جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال: (يخرج رجل من أمتي من أهل بيتي لست منه وليس مني)، وهذا فيه إشارة إلى أنه ربما يدعي رجل وهو من أهل البيت الحق وهو مخطئ، مما ينبغي أن يكون للإنسان حذراً من ذلك حتى لو ثبت نسبه إلى رسول الله ﷺ، وهذا مشكل ومشتبه، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى أنه يخرج رجل من أهل بيته، ولكن من جهة الحقيقة (ليس مني ولست منه)، وهذا خارج عن حال المهدي الذي يكون من نسب النبي عليه الصلاة والسلام، ويدعو إلى ذلك.

ما الذي يخرج من هذا؟ يخرج من هذا أهل العلم والحق الذي يتم على يديه، والدعوة التي يدعوها؛ ولهذا لا ينظر إلى نسب، ولا ينظر إلى دعاوى ما لم يكن ثمة عمل، فإذا كان ثمة عمل فيؤخذ من قول الإنسان؛ ولهذا لا ينظر إلى دعاوى الناس وأقوالهم وأنسابهم حتى ينظر إلى حالهم؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى هذا المعنى: (إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا ينظر إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى القلوب التي في الصدور)، هذا في حق الله، أما في حق البشر فالنظر إلى الأعمال مهم؛ لأن السرائر مردها إلى الله، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الخبر يقول: انظروا إلى أعمال الناس، ولا تشقوا القلوب، فإن طابقت الحق فخذوها، وأما ما عدا ذلك من الدعاوى مثل من يقول: أنا من آل البيت ونحو ذلك، فإن هذا ليس بدليل، وهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (من أهل بيتي لست منه وليس مني)، يعني: في الحق شيئاً.

انتظار المهدي

ومن المهمات أيضاً في أمر المهدي : أن المهدي لا ينبغي لأهل الإسلام أن يكونوا في انتظار له، فإن في ذلك شبهاً بأهل الرفض؛ ولهذا ما يطلقونه المهدي المنتظر هذا من الباطل، نحن لا ننتظر المهدي، ننتظر ماذا؟ ننتظر الأعمال ومواسم الخيرات حتى نقوم بها، ننتظر دخول رمضان، ننتظر دخول صلاة الفجر حتى نقوم لها، والضحى حتى نصليه، والظهر حتى نصليه، وننتظر مواسم العبادات حتى نؤديها، وننتظر مواضع الخير حتى نقبل عليها، أما أن نعلق الخير بأشخاص وذوات فهذا ليس من

هدي الإسلام.

وقد انتشر عند الرافضة مهدياً ليس بمهدي أهل الإسلام، وهو من الدجل العظيم؛ ولهذا أهل الإسلام يسمونه مهدياً كما جاء في النص؛ وذلك إما أنه يمهد الأرض بالخير، وقيل أنه يمهد ذلك لعيسى ابن مريم عليه السلام.

ظهور الخسف والمسخ قبل خروج المهدي

وبين المهدي وخروج عيسى عليه السلام خروج الدجال ، ويصاحب ذلك ربما جملة من الفتن، من هذه الفتن: ظهور الخسف والمسخ في الناس؛ وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى يظهر خسف ومسخ)، (خسف) قيل: خسف بالمشرق والمغرب تفصيلها عن النبي عليه الصلاة والسلام في خبر تقدم الكلام عليه، وقيل: إن المراد بذلك هو الإشارة إلى كثرة الخسوف في الأرض.

والمراد بالمسخ أن يمسخ أقوام كما مسخ من الأمم السالفة، فيصبحون كالبهائم، سواء كانت من بهيمة الأنعام، أو يمسخون قردة أو خنازير، ولم يثبت دليل في ذلك بين على التفصيل عن رسول الله ﷺ.

نزع البركة من الأرض قبل خروج المهدي

ومن ذلك قبيل أو مصاحب لخروج المهدي قبل بدئه بنشر العدل أن تنتزع البركة من الأرض، فلا يمطر الناس مطراً فينتفعون به، وقد جاء عند أحمد وغيره من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: (إنك تحدثت أنه لا تقوم الساعة حتى لا يمطر الناس ولا تخرج الأرض)، وجاء في خبر عن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تمطر الأرض، لا تكن له بيت مدر، وإنما تكن له بيت الشعر)، والمراد من هذا أنه تأتي أمطار تفسد بيوت المدر؛ الطين والحجر، ولكن بيوت الشجر لا تتأذى، وفي هذا إشارة إلى جملة أمور:

الأمر الأول: أن هذا يقصد به الهلاك، والهلاك يكون في المدن؛ بيوت المدر، وأما بيوت الشعر فهي البوادي، لا تتأذى، فيكون المطر قصد به أذية الناس وإفساد ما انتشر فيهم من الناس، فيكون حينئذٍ نزول المطر في الخبر في آخر الزمان نزول فساد.

الأمر الثاني: أن يكون نزول ولا ينبت، فلا يستفيدون منه.

الأمر الثالث: تمسك السماء القطر، والأرض النبات فلا تنبت، وفي ذلك انتزاع للبركة، ويكون هذا في أمر يسير.

وهذه الأمور المتسارعة عن النبي عليه الصلاة والسلام تكون في زمن متقارب، قيل: سبعة أشهر، وقيل: ستة أشهر، والنصوص في ذلك محتملة.

وينبغي أن يعلم أن أشراط الساعة لفترتها والتباس بعضها يضل في ذلك كثير من الناس، سواء في اتباع بعض التأويلات الفاسدة في هذا، وتقدم الإشارة إليه. والأمر الآخر: الانفكاك عن مسألة الاجتهاد في وقوعها؛ وقد روى ابن أبي شيبة من حديث ابن

عون عن ابن سيرين قال: قال ابن مسعود :كل ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أمر الساعة ظهر إلا أربع، قال عبد الله بن مسعود: يأجوج ومأجوج، والدابة، و الدجال ، وطلوع الشمس من مغربها. فهنا ما يروى عن عبد الله بن مسعود أنه يرى أنها خرجت، مما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا إما ما بلغ عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى في أشراط الساعة، وقطعاً أن عبد الله بن مسعود لم يحط إحاطة بما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من أخبار الفتن وأشراط الساعة؛ لأن الإحاطة ليست لأحد من الخلق على الإطلاق، وإنما ما بلغه من ذلك رأى أنه ظهر، ولكن يعلم أنه بعد التدوين وكثرة الكتب، وتوافر كثير من المسائل للناس مما يغيب عن الأفراد الأوائل لا يعني توفيق أولئك الناس، بل يكون فتنة وضلال.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يحذر من ذلك حتى لو ملك زمام العلم من مسائل العلم أن يسأل الله عز وجل التوفيق والإعانة والصواب؛ لأن كثرة المسائل والفتن التي يحويها الإنسان بين يديه سواء في بطون الكتب أو على صدره تكون مظنة لكثرة الاشتباه، فلا يدري هذه أول أو هذه أول؛ وينبغي للإنسان أن يتمسك بما ظهر من الأدلة، وأن يتمسك أيضاً بالحقائق، ولا يلتفت إلى المصطلحات التي يدعو إليها الناس، أو إلى الدعاوى التي يتشبثون بها.

هدم الكعبة

ومن أشراط الساعة ما تقدم الإشارة إليه على سبيل الإجمال وهو: هدم الكعبة، ويهدمها ذو السويقتين .

الأحوال التي تتعرض لها الكعبة من الأذية والهدم

وجاء في قصد البيت الحرام بالأذية أخبار مجموعها على هذا النحو:

الأمر الأول: يكون فيه محاولة لهدم البيت الحرام وأذيته فتبوء بالخسارة، وقد جاء ذلك في حديث عائشة عليها رضوان الله تعالى قال: (يغزو جيش الكعبة حتى إذا كانوا ببيداء إذ يخسف الله بهم الأرض)، وهذا لم يحدث، ويدل أنه آخر الزمان يكون ثمة قصد للبيت الحرام، ولا يتمكنون من ذلك.

الأمر الثاني: يتبعه بعد ذلك ذو السويقتين ، فيهدم الكعبة وهو من الحبشة، ويتمكن من هدمها، وهذا الهدم يظهر أنه قبل خروج المسيح عيسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنه جاء عن رسول الله ﷺ أن الحج قائم بعد المسيح، ويطاف بالبيت، فإذا هدمت الكعبة تكون أزيلت، إما أن يكون الطواف بمثابة، وهذا احتمال وهو ضعيف، وإما أن تكون هدمت ثم بنيت، فيكون ذلك بعد عمارة، وتقدم الإشارة إلى عمارة التشييد في خبر موقوف عن عبد الله بن عمرو عند ابن أبي شيبة في المصنف، وإما أن يكون ذلك الهدم بعد ذلك، فلا يطاف بعد ذلك بالبيت، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح أنه قال: (ليطافن بالبيت الحرام بعد المسيح)، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح أيضاً قال: (ويحج ابن مريم بالحج والعمرة أو بأحدهما)، يعني: يعتمر أو يحج، أو قارناً، وهذا يكون في حال وجود الكعبة.

والذي يظهر والله أعلم أن الهدم إما أن يكون قبل المسيح هدماً، ثم تبنى بعد ذلك، أو يكون بعد ذلك ولا يكون ثمة قائم؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة إلا ولا يطاف بالبيت الحرام)، يعني: لا يكون ثمة أحد يطوف، وهذا يكون بعد الريح التي تقبض أرواح المؤمنين.

الرد على حصول الإحباط عند سماع أحاديث هدم الكعبة

بعض الناس يصاب بنوع من الإحباط، يقول: إذا هذه الأدلة (لا يطاف بالبيت) (تهدم الكعبة) ونحو ذلك، يدل على اضمحلال الإسلام، فكيف أجمع بينها وبين هذا؟

هذا يكون بعد قبض أرواح المؤمنين في حال قيام الساعة، ويكون الناس في الأرض هم الشرار، ويرفع العلم، ويرفع المصحف من الكتب ومن الصدور، ولا يبقى أحد من المسلمين حينئذٍ تكون قيام الساعة، وهذا في زمن متداخل ومتقارب على خلاف عند العلماء فيه.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام إذا كان ثبت أن المهدي يظهر قبل خروج الدجال وقبل خروج عيسى،
فيخرج الدجال بعد عيسى يدل على أنه في عمر الإنسان السوي من الستين إلى السبعين، وفي زمن متقارب، ومع ذلك دل الدليل على أن المهدي لا يخرج ولا يقوم في الناس إلا وقد استوى وبلغ أشده، وهذا يعضده قرائن من الأدلة.

وقد جاء في بعض الأخبار الموقوفة أنه ستة أو سبعة أشهر، يعني: يكون انفراط العقد، وجاء عن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى عن النبي عليه الصلاة والسلام أن أشراط الساعة الكبرى كالخرزات تتابع، يعني: كانفراط العقد، فإن الإنسان إذا فرط عقداً انفرطت خرزته واحدة تلو الأخرى: خروج المهدي ، القحطاني، المسيح الدجال ، عيسى ابن مريم، هدم الكعبة، الروح التي تقبض المؤمنين، ثم متسارعة، وقد تقدم معنا أن ثمة تداخلاً بين أشراط الساعة الكبرى والصغرى نوع منها، كما تقدم الإشارة إليه في مسألة الجهجاه يظهر أنه أحد الفتن، وكذلك القحطاني مصاحب للمهدي، وهي متداخلة في أشهر، وربما تكون في عام واحد؛ ولهذا الظن أن أشراط الساعة الصغرى منفكة انفكاكاً تاماً عن الكبرى هذا قول ليس بسديد، أكثرها منفك، ولكن منها ما هو متداخل مع أشراط الساعة الكبرى كما تقدم.

وفي هذا كفاية، أسأل الله عز وجل أن يوفقني وإياكم لمرضاته، وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.

الدرس السادس

من علامات الساعة الكبرى خروج المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج، وفتنتهما من الفتن العظيمة التي يقع بسببهما الكثير من المصائب والابتلاءات لكثير من الخلق، ومن أعظم الأشراط السماوية ظهوراً طلوع الشمس من مغربها، وحينئذٍ تنقطع التوبة، ولا ينفع النفس إيمانها.

متعلقات أشراط الساعة الكبرى والصغرى والتداخل بينها

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تقدم معنا الكلام على أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى، وذكرنا جل ذلك، وبينا شيئاً مما يتعلق بدراية الأخبار التي جاءت في ذلك من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ، وجاء أيضاً من الموقوف عن أصحاب رسول الله ﷺ.

ومما ينبغي أن يشار إليه هو أن يعلم أن أشراط الساعة وأماراتها منها ما يتعلق بالكبائر وملتصق بها، يعني: بعد قيام الساعة، وإذا علم هذا علم أن الصغائر بعضها يتداخل مع قيام الساعة، وبعضها منفصل ومنفك عنه، وإنما أطلق على الصغار وأشراط الساعة الصغيرة هذا الاسم باعتبار أن الأغلب فيها أنها قبل ورود علامات الساعة الكبرى.

وقد تقدم معنا الكلام على ظهور المهدي ، وأنه تمهيد لخروج المسيح الدجال، ثم لخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا فيه تداخل مع الكبرى، ثم ما يلي ذلك من بعض أشراط الساعة التي تقدم الإشارة إليها، واختلافها كذلك في جملة من الأزمنة وتباينها وقوعاً، منها: ظهور الجهل وقبض العلم.

ومعلوم أن الدجال لا يخرج إلا في حال قبض العلم وظهور الجهل، وكذلك بالنسبة للقحطاني يكون بعد ظهور المهدي على الصحيح كما تقدم الكلام عليه، وفي هذا جملة فيما تقدم إطلاقه من كلام رسول الله ﷺ من كثرة الزلازل والخسوف، فإن هذا إجمال، ويرد تحت هذا الإجمال جملة من التقييدات لما جاء رسول الله ﷺ، منها ما يتعلق بأشراط الساعة الكبرى الثلاثة الخسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب وداخلة تحت ذلك العموم.

وسنتكلم على أشراط الساعة الكبرى، وذكرنا في السابق التقسيم الأرجح في ذلك؛ أن أشراط الساعة على قسمين: أشراط تسبق قيام الساعة وهي كبرى وصغرى، وأشراط تأتي بعد قيام الساعة، وقيام الساعة يعلم ظهوره عند طلوع الشمس من مغربها، وهي أظهر العلامات السماوية، فإذا ظهرت هذه العلامة علم أن الساعة قد قامت، ويندرج فيها بعض الأشراط التي تكون امتداداً للصغرى، والكبرى تكون كالعقد تنفرط انفراطاً.

وأما الكبرى التي تسبق قيام الساعة وتقبل فيها التوبة، فهي ما جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك جملة: منها خروج المسيح الدجال ، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم ، هذا تقبل فيه التوبة، وإذا طلعت الشمس من مغربها كانت هذه أبرز العلامات السماوية.

ترتيب أشراط الساعة الكبرى في الوقوع

وينبغي أن يعرج على مسألة مهمة قبل ذكر أشراط الساعة، وهي مسألة الترتيب والوقوع.

اختلاف العلماء في ترتيب أشراط الساعة

ترتيب هذه العلامات يجتهد فيها العلماء بحسب ورود الأخبار عن رسول الله صلى الله وعليه وسلم فيها، ويقولون في ذلك جملة من الدلالات، منها: الترتيب الذهني، والترتيب الذهني لا يفيد ترتيب الوقوع، وهذا إذا كان على سبيل العطف بالواو، والعطف بالواو لا تفيد الترتيب، كقول الإنسان: (مررت بزيد وعمرو) لا يفيد أنه مر بزيد أول الأمر، ثم تلاه بعد ذلك عمرو، وإنما قد مر بالجميع، فقد يسبق هذا وهذا، وقد يكون هذا مصاحباً لهذا؛ ولهذا وقع خلاف عند العلماء بحسب السياق: أي أشراط الساعة وقوعاً؟

ولهذا منهم من يجتهد في هذا الباب ويجعل أشراط الساعة الكبرى تكون بعد طلوع الشمس من مغربها، ويجعل أول أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها، ومنهم من يجعل أول أشراط الساعة هي النار التي تحشر الناس كما جاء في بعض الإطلاقات من كلام رسول الله ﷺ.

اختلاف الروايات الواردة في الترتيب

وينبغي أن يعلم أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكر أشراط الساعة يصاحب ذلك جملة من الإشكالات في باب الرواية والدراية: منها ما يتعلق في أبواب الرواية، فيكون الراوي قد روى هذا الخبر على سبيل التجوز، فقدم هذه وأخر هذه، كما جاء هذا في حديث أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى في الصحيح من حديث مُحَمَّد بن فضيل بن غزوان ، عن أبيه عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (ثلاث إذا طلعت لم تقبل من أحد أو من نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة)، وجاء في بعض الروايات (الدجال، وطلوع الشمس، والدابة)، فبعضهم أخذ الترتيب على حسب الرواية، وأرجح الروايات في هذا هي رواية وكيع بن الجراح ، وقد روى هذا الخبر جماعة عن مُحَمَّد بن فضيل ، ورواه أيضاً جماعة عن فضيل بن غزوان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، يختلفون في مسألة الترتيب.

وهذا الترتيب لو ثبت واتفق الرواة عليه لا يلزم من ذلك هو ترتيب الوقوع فعلاً، وإنما يعني أنها مصاحبة.

ويؤكد هذا ويؤيده أن ما كان متتابعاً وممتزجاً بعضه مع بعض يتجوز الناس في نقل خبره من جهة الترتيب، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال: (إن أشراط الساعة كخرزات في عقد، إذا انقطع العقد تتابعت)، وقد جاء أيضاً من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

وهذه الأحاديث تدل على التتابع، والتتابع لا يستطيع معه الإنسان أن يميز هذه المعاني، خاصة أنه دل الدليل على تداخلها، ومن ذلك مسألة إمام المسلمين الذي يصلي بالناس في نزول عيسى ابن مريم، وكذلك المسيح الدجال الذي ينزل ويقتله عيسى، وقتل عيسى له دليل على أنه جاء بعده، وأدرك شيئاً من زمنه، وكذلك يأجوج ومأجوج هو مصاحب لعيسى ابن مريم؛ ولهذا عيسى ابن مريم يلجأ بالمسلمين إلى الطور، ويأجوج ومأجوج لا يقاتلون، وهم مما سلطهم الله عز وجل على عباده، فلا يأمر الله عز وجل المسلمين بقتالهم مع أنهم يفسدون، وهذه متتابعة ومتداخلة من جهة الوقوع، فترتيبها من جهة الأصل خاضع لمسائل

الاجتهاد، وخاضع أيضاً لبعض صيغ الرواية التي جاءت عن رسول الله ﷺ، وقد جاء في ذلك جملة من الروايات، جاء في ذلك حديث حذيفة بن أسيد ، وجاء في ذلك أيضاً حديث أبي هريرة ، وحديث سلمان الفارسي و أنس بن مالك وغيرها من الأحاديث عن رسول الله ﷺ في ذكر علامات الساعة الكبرى.

خطأ من يتكلم في أشراط الساعة بإطلاق

وإذا علم هذا علم أن الإطلاقات التي يطلقها من يتكلم في أشراط الساعة هي خاطئة في الظن، ولا يقين في ذلك، وأما ما دل عليه الدليل على التداخل فإنه يقطع به، كمثل المسيح الدجال يخرج قبل عيسى ابن مريم، ثم يتبعه عيسى ابن مريم، وهم في زمن واحد، وهذا قد دل الدليل عليه.

ثم خروج يأجوج ومأجوج، هل هو كان من إرهاصاته قبل عيسى ابن مريم، ثم ظهر مع عيسى ابن مريم، فانصرف عيسى عليه السلام بالمسلمين إلى الطور فلا يقاتل يأجوج ومأجوج؟ وهل كان ذلك قبل ذلك فتركهم حتى يقتلوا المسيح الدجال أم كان بعد ذلك؟ هذا محتمل، وكل هذا من مسائل الظن، إلا أن الذي يقطع به أن المهدي والقحطاني وعيسى ابن مريم و المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج هي في وقت واحد، تشترك في أيام واحدة، لكن أيها خرج أولاً وأيها آخرها اضمحلالاً؟ هذا يفتقر إلى اجتهاد وظن، ولا يتكئ على يقين.

وأما ما يكون في هذه المسائل مما يتعلق بمسألة العبادة، من مسائل طلوع الشمس من مغربها وانقطاع التوبة جاء في ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة أن النفس لا ينفعها إيمانها إذا ظهرت هذه الآيات لم تكن آمنت من قبل، وذكر منها طلوع الشمس من مغربها، و الدجال ، والدابة، هل يلزم من ذلك أن الدجال والدابة يكون بعد طلوع الشمس من مغربها؟ أم أن الشمس إذا ظهرت من مغربها تلاها بعد ذلك خروج الدابة وخروج الدجال؟ أم أن الدجال قبل ذلك ثم بعد ذلك طلوع الشمس من مغربها؟ هذا لا يظهر.

ولكن المراد من هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكر هذه الآيات، وأنه لا ينفع النفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، أن المراد من ذلك أن النفوس تنصرف عن الحق إذا لم تكن قد تشربته قبل ذلك من المسيح الدجال ممن تبعه ولو كان صاحب إيمان؛ ولهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالفرار من الدجال عند السماع به، كما جاء في حديث عمران بن حصين وغيره؛ لما يبعث من الفتن والشبهات، فما يكون من أهل الإيمان ينفعهم إيمانهم قبل الشبهات، ومن كان في حال الشبهات فهو أشد انصرافاً إلى الباطل.

وأما طلوع الشمس من مغربها فهذا مقطوع به وهو محل اتفاق؛ أنه إذا طلعت الشمس من مغربها لا ينفع النفس إيمانها، ويكون حينئذٍ قد قامت الساعة.

تقسيم أشراط الساعة الكبرى باعتبار السماء والأرض

ومن العلماء من يقسم أشراط الساعة الكبرى ما يتعلق بالأمور السماوية، وما قد اعتاد الناس عليه، وما يتعلق بالأمور الأرضية،

ويحمل ما جاء من بعض الإطلاقات من كلام رسول الله ﷺ من أول أشراط الساعة وعلاماتها كذا، وأول علاماتها كذا، قال: ما جاء من أول علامات الساعة من طلوع الشمس من مغربها فيه إشارة إلى علامة من العلامات السماوية.

وأما ما يذكر من أول علامات الساعة وهو ظهور النار التي تحشر الناس إلى المحشر، وهي أول أشراط الساعة كما جاء في حديث سلمان ، قالوا: هي العلامات الأرضية، وقالوا: هذا بحسب المعنى الذي أريد من ذكره في كلام رسول الله ﷺ، وكل هذا من الأمور المحتملة.

وكلمة (أول) لا تعني من ذلك الأسبقية على الإطلاق أنه لا يسبقه، ولكن يعني من ذلك أن أول ما يشد الناس ويذهلهم، هذا في الأغلب.

تأثير أحوال الرواة على الروايات الواردة في أشراط الساعة

وينبغي لطالب العلم أن يعلم أن الرواة في غالب أمرهم في نقلهم للأخبار يطرأ عليهم من الوهم، ويطرأ عليهم أيضاً من التقديم والتأخير مما يسوغ إذا كان ذلك لا يغير حكماً، وذلك أن هذه أشراط الساعة في حال تقديمها وتأخيرها لا تغير من دين الله عز جل شيئاً في أبواب الأحكام، فالشريعة قائمة، والأعمال الناس قد أمروا بها، ولا يكلف الإنسان زائداً عن ذلك، حتى عيسى عليه السلام حينما ينزل يتبع ويحكم بشريعة مُحَمَّد ﷺ، ويؤم المسلمين منهم، ويصلي بهم ويقتدي بذلك عيسى عليه السلام، فلما كان كذلك كان الرواة من جهة الضبط لا يعتنون بذلك عناية فائقة، كما يعتنون بضبط الألفاظ التي إذا تغير لفظ منها غير حكماً شرعياً.

وبهذا يعلم أن ما يذكره العلماء من هذا هو اجتهادات خارجة عن القيد الذي ذكرنا في مسألة التزامن والاشتراك في بعض الأيام كما تقدم الكلام عليه كما تدل عليه سائر النصوص من حديث أبي هريرة ، ومن حديث سلمان ، وحديث حذيفة بن أسيد ، وحديث عبد الله بن عمرو ، و النواس ، وغيرها من الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح

بعد خروج المهدي ، وقد تقدمت الإشارة إليه، ويصلح الله عز وجل به صلاحاً ظاهراً بعد انتشار البغي والفساد في الأرض، ويجعل الله عز وجل فتحاً على يديه، ويكون هذا بعدما تقدم الكلام عليه من مثل (عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية).

والقسطنطينية هي حديثاً ما تسمى بإسلام بول، وهذا أول ما سميت به، ثم قلبها أتاتورك إلى الاسم الحالي ما يسمى باسطنبول، وكانت عاصمة للمملكة الرومية، وقد أنشأها وأسسها قسطنطين وهو ملك الروم، وقد فتحها مُحَمَّد الفاتح .

وهذا الفتح هل هو الفتح النهائي الذي أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام الذي يسبق قيام الساعة، وقد فتحت قبل قرون أم

أن ثمة فتحاً آخر؟

قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنها تفتح بالتكبير والتهليل كما جاء عند ابن ماجه في سننه، ولعل المراد بذلك أنها تفتح دعوة وذكراً وتعليماً، وإدخال الناس في الإسلام سلماً من غير حرب، وهذا محتمل.

وبلاد تركيا كما لا يخفى بلاد ينتسب أهلها للإسلام مع وجود الشركيات فيها، وانتشار التصوف الغالي فيها، إلا أن جل السكان أو كلهم من المسلمين، وسكانها قرابة (99%) من المسلمين أو أكثر من ذلك، وإن كانت كذلك فلعل الله عز وجل أن يقيض من ينشر الإسلام فيها إسلاماً صحيحاً نقياً من الشرك والوثنية، ويفتح الله عز وجل على يديه فتحاً ينتشر فيه الإسلام الحق النقي بعيداً عن البدعيات والشركيات.

ما لم يظهر من أشراط الساعة الصغرى إلى الآن

ما يخرج من أشراط الساعة الكبرى هي بعد هذه الأمور، لكن هل يلزم مما تقدم ذكره من عمران بيت المقدس وخراب يثرب هو العمران الذي يتبع قتال المسلمين لبلاد فلسطين ويفتحون بذلك القدس؟

هذا هو الظاهر؛ ولهذا لم يظهر جملة من أشراط الساعة الصغرى إلى الآن، منها: عمران بيت المقدس، وخراب يثرب، ونفي المدينة لخبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، وقتال المسلمين لليهود حتى يختبئ اليهودي خلف الشجر والحجر، فيقول: (يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله)، وهذا فيما لم يظهر، وكذلك نطق البهائم وكلامها، وتكلم الحجر والشجر، فهذا كله مما لم يظهر من أشراط الساعة وعلاماتها التي صنف عند العلماء على أنها من الصغرى، وإن كان على سبيل الاحتمال أنها تندرج تبعاً لأبواب الكبرى، فتكون في زمن المسيح، فهذا مما يحتمل، ولكن الذي يظهر والله أعلم أنها تسبق ذلك.

فتنة المسيح الدجال

عظم فتنة المسيح الدجال

ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام من خروج المسيح الدجال هو أعظم الفتن منذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا، كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام: (ما بين آدم وقيام الساعة أمر أعظم من فتنة المسيح الدجال)، وهذا من النبي عليه الصلاة والسلام بيان لخطر هذه الفتنة العظيمة التي ينبغي للمسلمين أن يكونوا على حذر منها، وهذا قد جاء تفصيله في بيان المسيح الدجال في حديث عامر بن شراحيل عن فاطمة بنت قيسفي حديث تميم الداري في صحيح مسلم ، لما ذكر رسول الله ﷺ ما رآه تميم حينما ركب ومعه ثلاثون رجلاً سفينة، فنزلوا في جزيرة، فوجدوا دابة أهلب، يعني: فيها شعر كثيف، فقادتهم إلى المسيح الدجال، فوجدوه مقيداً كأعظم ما يكون الرجال، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، مما يدل هذا على أن المسيح الدجال موجود، وأن الله عز وجل لم يأذن بخروجه. وفتنة المسيح الدجال فتنة عظيمة، وله علامات.

وجه التسمي بالمسيح

وسمي مسيحاً لأنه ممسوح العين، يعني: ليس عين، فلا توجد عين طائفة أصلاً، أو لا يرى بها، وإنما له عين من جهة أصل الخلقة، هي عين واحدة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (إن المسيح الدجال أعور، وإن الله ليس بأعور)، وذلك أنه يدعي الربوبية.

حال المؤمن عند خروج الدجال

وفي حال خروجه ينبغي بل يجب على من كان في قلبه إيمان ألا يأتيه وألا يراه، وكثير من الناس يرغبون النظر في الفتن عند ظهورها؛ إشباعاً لرغبات النفوس، وينساقون خلف هذه الفتن انسياقاً، وقد ذكر رسول الله ﷺ كما جاء في حديث عمران (إن الرجل ليسمع بالدجال فيأتيه وهو يحسب أنه مؤمن)، يعني: لثقة إيمانه (فيتبعه لما يرى من الشبهات).

من أخبار وأحوال المسيح الدجال

وقد جاء عن رسول الله ﷺ جملة من ذكر أخباره وأحواله، منها: ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه يمكث في الناس أربعين يوماً، كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الرحمن بن جبير ، عن أبيه، عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: (يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، ويوم كساعة، قالوا: يا رسول الله! اليوم الذي هو كسنة أتكفينا فيها صلاتنا هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، اقدروا لها قدرها).

ولكن مع قصر مدته بالناس قد جعل الله له خصيصة وهي سرعته؛ ولهذا قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إن سرعته كالغيث تدبره الريح)، فالغيث إذا نزل والريح خلفه تسيره فإنه ينزل في الناس، فيسير مسيرة لا يسيرها البشر عادة.

ويخرج في خلة بين الشام والعراق كما جاء عن رسول الله ﷺ في الصحيح، وهذا الخروج يخرج قاصداً مكة والمدينة، ولكنه لا يمكن من دخول مكة والمدينة، فإنه يصادفه على أطرافها ملائكة معهم سيوف، كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ. وهذا فيه أن الإنسان ينبغي أن يطلب في حال الفتن الأراضي التي فيها مأمن، وأعظم مأمن هو التحصين بالعلم.

الأمور التي تدفع خطر المسيح الدجال

وأعظم ما ينبغي للمؤمن أن يكون حذراً في هذا الزمن من أمور:

أولها: أن يكون من أهل العلم والمعرفة، فإن العلم إذا حواه الإنسان في صدره وكان من أهل الإيمان والعبادة؛ عصمه الله عز وجل بإذن الله عز وجل بعصمته من الوقوع في الفتن.

ثانيها: أن يعرف أسباب الوقاية من ذلك، فمن ذلك ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام بقراءة العشر الأوائل من سورة الكهف كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح.

ثالثها: الاستعاذة من فتنته كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح وغيره بالاستعاذة قبل التسليم في الصلوات.

رابعها: أن يكون عالماً بحاله ووصفه وفتنته، ومن أعظم فتنته أنه يحيي الموتى في الظاهر للناس، فيخيل للناس أنه أحيا هذا من الموت، وقد جاء عن رسول الله ﷺ كما في المسند من حديث عبد الله بن عمروقال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن من فتنته أن يأتي الرجل الأعرابي فقال: إن أحييت أباك وأمك أتؤمن بأني ربك؟ قال: نعم، قال: فيحيي أباه وأمه، فيقولان له: يا بني! إن هذا ربك فاتبعه، فيتبعه)، وهذا دليل على عظم الفتنة، وأن الإنسان إذا كان منصرفاً عن العلم؛ وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله: (حتى يأتي الأعرابي) والأعراب يغلب عليهم الجهل، فلما كان كذلك كان أكثر أتباعه من اليهود؛ لأنهم أشد الناس بعداً عن الوحي كما جاء النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح قال: (يتبع المسيح الدجال سبعون ألفاً من يهود أصفهان عليهم الطيالسة)، وأصفهان هي في إيران، واليهود في أصفهان ما زالوا موجودين إلى يومنا هذا.

اتباع النساء للمسيح الدجال

ومن أكثر ما يتبعه النساء كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في المسند من حديث جابر أنه قال: (إنه خارج فيكم، وأكثر ما يتبعه النساء، وإن الرجل لينصرف إلى أهله، فيربط حبيبه وأمه وأخته وعمته خشية أن تتبع المسيح الدجال)، وهذا يدل على أن الجهل في اليهود، والجهل فيمن حق فيه الجهل ممن بعد عن مواضع العلم من أهل البادية، وكذلك من كان ضعيف القلب يتعلق بالشبهات، ويتأثر ببعض الفتن والعوارض من النساء هم أكثر الخلق اتباعاً للمسيح الدجال ، وهي فتنة عظيمة ينبغي للإنسان أن يبتعد عنها؛ وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام كما في حديث عائشة قالت عليها رضوان الله تعالى: (ليفرن الناس من المسيح الدجال إلى الجبال، قالت: يا رسول الله! والعرب أين هم حينئذٍ؟ قال: هم حينئذٍ قليل).

التحذير من الالتقاء بالمسيح الدجال

ويجب عند السماع بفتنة المسيح عدم الالتقاء به، وعدم رؤيته؛ لأن فتنته فتنة عظيمة؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عمران بن حصين : (إن الرجل ليأتيه ويحسب أنه مؤمن، فيتبعه لما يرى أو يبعث من الشبهات).

وفي هذا أمر مهم جداً أن الإنسان إذا وفقه الله إلى الحق، ووفقه إلى اليقين، واطمأن قلبه على ذلك بأمر بينة وحجة ظاهرة من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، عليه أن لا يعرض نفسه للشبهات والأقوال والقيل؛ لأن قلب الإنسان ضعيف، فإذا عرضه للشبهات والفتن انطوت، ولهذا رسول الله ﷺ أمر بأنه إذا سمع بالمسيح الدجال أن ينصرف عنه، فلا يقول الإنسان: لعلي أطمئن، أو لعله ليس هو المسيح، وإنما هو رجل آخر ونحو ذلك، هذه من التسويلات التي تدخل قلوب العباد حتى يصرفهم الشيطان عن الحق.

خروج يأجوج ومأجوج

بعد خروج المسيح الدجال يخرج يأجوج ومأجوج.

جنس يأجوج ومأجوج

ويأجوج ومأجوج هم من نسل آدم عليه السلام، كما جاء عن رسول الله ﷺ في المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال: (يأجوج ومأجوج من ولد آدم)، ولا أعلم نصاً عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن الأئمة المتبوعين في القرون الثلاثة من نفى أن يكون يأجوج ومأجوج من غير نسل آدم، مما يدل على أنهم من البشر.

بعض ما جاء في أوصاف يأجوج ومأجوج

ومن أوصاف يأجوج ومأجوج ما جاء عن رسول الله ﷺ أن وجوههم كالمجان المطرّقة، وهي كالترس المستدير، والمطرّقة يعني السميكة، مطروقة حتى سمكت، يعني: ذوو وجوه سميكة كحال الترس التي يحتمي بها الإنسان.

وحالهم ومخرجهم هذا مما هو في علم الله سبحانه وتعالى، ولكنهم كثير، وقد كانوا في زمن ذي القرنين ، وقد حال بين فسادهم وإطلاقهم عن إفساد بني آدم بأن وضع بينهم سداً وردماً من حديد، وبه يعلم أن ما يشتبه فيه من السدود من غير الحديد أنه ليس بسد يأجوج ومأجوج.

وأما بلادهم وحالهم وموضع خروجهم، وتحديدهم بأعيانهم فهذا مما يعلق بعلم الله عز وجل، والاجتهاد في ذلك أمر واسع ما أنيط بذلك عمل.

ومن علاماتهم أنهم يمرون ببحيرة طبرية؛ فيمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربها، ويقوم آخرهم فيها فيقول: قد كان في هذه ماء، وهذا من كثرتهم واستيعابهم عدداً، وقد تكون بحيرة طبرية في الزمن الذي يخرجون فيه قليلة، فيستوعبها ناس قليل، ولكن الذي يظهر أنها جاء في سياق الكثرة، وطبرية هي بحيرة في بلاد الشام، وفيه إشارة إلى أن خروجهم من تلك النواحي، ويريدون بلاد المسلمين وأرض الوحي.

قتال يأجوج ومأجوج

وينبغي أن يعلم أن يأجوج ومأجوج لا يقاتلون، وهذا ما يأمر الله عز وجل به عيسى ابن مريم عليه السلام كما جاء في الصحيح من حديث النواس بن سمعان قال: (إني مخرج عباداً لي لا يدان بقتالهم)، يعني: لا يتكلف الإنسان بقتالهم، وإنما يتركون، ومعنى ذلك أن الله عز وجل يسلط عليهم من خلقه من يهلكهم، ويسلط الله عز وجل عليهم الأوبئة فتهلكهم.

وأما ما يذكره بعض الذين يتكلمون عن الفتن وأشراط الساعة من مشروعية قتالهم ونحو ذلك، فهم يعيثون فساداً كما جاء في المسند وغيره قال: (إن من عبادي يأجوج ومأجوج، ولو أخرجتهم لأفسدوا الخلق)، وهذا قد جاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام في ألفاظ متنوعة في المسند والطبراني بأسانيد يعضد بعضها بعضاً، فهم مفسدون من جهة الأصل، ولكن لا يقاتلون؛ لأنه لا قبل لأحد بذلك، فإذا كان الله عز وجل قد منع المسيح عيسى ابن مريم من قتالهم، وكذلك من كان دونه، وهذا ظاهر في قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يدان بقتالهم)، يعني لا قدرة على الإنسان في قتالهم، فقتالهم في ذلك فتنة.

وبه يعلم أيضاً أن المسلمين إذا كانوا في حال ضعف وكان عدوهم ذا قوة، وإذا تسلط عليهم عدوهم استأصل شوكتهم، وحاز على بيضتهم فإنه لا يجوز لهم ولا يدان لهم بقتالهم كما في قصة يأجوج ومأجوج في قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يدان بقتالهم).

وقت خروج يأجوج ومأجوج

ويخرج عيسى ابن مريم عليه السلام بين دمشق وبيت المقدس، ويقتل المسيح الدجال ، ويظهر أن يأجوج ومأجوج هو مصاحب لذلك.

وهل يكون خروج يأجوج ومأجوج هو بعد مقتل المسيح الدجال أم يكون مصاحباً له فهو فتنة وتزول؟

كل هذا مفتقر إلى دليل بين، ولا دليل في ذلك، إلا أن الدليل أنها مصاحبة، فلما كان مصاحباً لعيسى ابن مريم دل على مصاحبته أيضاً، وقربه من المسيح الدجال ، ويقتل عيسى ابن مريم عليه السلام المسيح الدجالبباب لد، وهو موضع قرب بيت المقدس، وذلك يدل على أنه لا يدخل مكة والمدينة، ويدخل ما عداها حتى بيت المقدس، وهذا يدل على فضل هذين الموضعين؛ ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)، فينبغي للإنسان في حال الفتن أن يلتمس المواضع التي فيها عصمة لدينه، وأن يتحصن بالعلم الشرعي، وأن يبتعد عن مواضع الفتن، وأن يلتحق بأهل الحق ما وجد في ذلك راية، كما يلتحق المؤمن بالمهدي حال ظهوره، وكذلك بعيسى ابن مريم حال ظهوره.

وفيه إشارة إلى مسألة مهمة أن المسلمين حال تعدد راياتهم ينبغي أن يندرج أحدهم مع الآخر كما حال إمام المسلمين لما ينزل عيسى ابن مريم يندرج تحته أميرهم، ويكون أمرهم بأمر عيسى ابن مريم، وتقدمهم بالصلاة من خصيصة هذه الأمة، وألا يستأثر بعضهم على بعض، فتقع حينئذٍ فتنة، وكما تقدم الإشارة إليه عندما جاء في حديث عبد الله بن عمرو من الأخبار عن أشراط الساعة، وأنها كالخرزات في العقد، فإذا انقطع العقد تتابعت الخرزات، يعني: أنها متلازمة بعضها مع بعض.

خروج الدابة

أما خروج الدابة فيكون في زمن يسير في ظاهر سياق الأدلة، ولكن موضع الخروج ومدة المكث، وانتقالها من بلد إلى بلد، كل هذا مما لا يثبت فيه شيء عن رسول الله ﷺ، ويظهر أنها مصاحبة للمسيح الدجال، وخروجها مع خروجه، كما جاء في حديث تميم

الداري أنها هي وإياه في جزيرة واحدة، وهذا محتمل، والعلم في ذلك عند الله سبحانه وتعالى.

ومن أراد أن يلتمس موضع الدابة من جهة الخروج لا يستطيع أن يحدد ذلك من جهة الفردية بأشراط الساعة إلا أنها متضمنة لذلك، وقد تكون مصاحبة لعيسى، إلا أن هذه الدابة لا يظهر فيها أذى للناس في دينهم وصدهم عن ذلك كما في المسيح.

بعض أوصاف الدابة

وهي دابة لا يعلم وجهها من قفاها كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح من حديث عامر عن فاطمة بنت قيس في قصة تميم الداري ، قال: (رأيناها أهلب، لها شعر لا يعرف وجهها من قفاها)، وهي الدابة التي يخرجها الله عز وجل في آخر الزمان تكلم الناس، وقيل: إنها تسمهم على خراطيمهم، وقد جاء أنها تسمهم على خراطيمهم في قراءة لبعض السلف، وقد جاء هذا عن سعيد بن جبير وفسره بهذا المعنى، أي: أنها تجعل الناس على فريقين، وتسمهم بهذا الوسم؛ حتى يرجع بعضهم إلى بعض فيقول: ممن ابتعت هذه الدابة؟ فيقول: قد ابتعتها من الموسوم الفلاني، يعني: ممن وسمته الدابة؛ لشدة فتنتها واستيعابها للناس، إلا أنه لا يكون لها صد عن دين الله سبحانه وتعالى.

دعوى خرافة الدابة

تكون الدابة كالمنبه بأمر الله جل وعلا، وهي من العلامات التي لم تكن مألوفة، وما لم يؤلف في أشراط الساعة هو الذي يفزع يفجع، ويدخل في كلام بعض الناس الذين ليس لديهم إيمان قوي وتصديق بأشراط الساعة ودلائل النبوة، فيتهمون أمثال هذه النصوص بأنها دخيلة على الوحي، أو يتهمونها بتأويلات بعيدة، ومن ذلك ما يتكلم عليه بعض المتأخرين من الكلام على مسألة الدابة وأنها من الخرافات، ويتكلمون على مسألة المسيح الدجال، وأنه من الخرافات، ويتأولونه تأولاً وتعسفاً، ويقولون: نحن أمام نص وثبت بالوحي، وتأوليه بالتأويلات، وربما يكون هذا من الأوبئة والأمراض ونحو ذلك، وهذا من الخرافات، حتى ذكر أحد المفسرين من المتأخرين ما هو أبعد من ذلك في الطير الأبابيل التي أرسلها الله عز وجل على أصحاب الفيل، قال: هي الجراثيم والبكتيريا التي تصيب الناس فتهلكهم، وهذا من التعسف، وأطر النصوص، وإخراجها عن مرادها.

وهذه التأويلات قد يتضمن ضعف إيمان بالإنسان بأن الله عز وجل ليس بقادر أن يخرج شيئاً عما يألفه الناس، والله عز وجل قادر على ذلك، وما زال الناس يرون من الأحوال ومن خلق الله ما لم يعرفه السابقون من الكائنات البرية والبحرية مما يطرأ عليهم، وكذلك الفضائية مما لم يره السابقون، ومما ينبغي للإنسان أن يكون من أهل التسليم في مثل هذا، وأن يمرها على ظاهرها إيماناً كما هو ظاهر من إرادة الشارع.

خروج الدخان

ومن أشراط الساعة الكبرى: الدخان.

والدخان الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في حديث حذيفة بن أسيد ، وجاء عن رسول الله ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو وغيره هل خرج أم لا؟

ذكر بعض العلماء أنه خرج، وهذا مروي عن عبد الله بن مسعود ، وقد جاء عن عبد الله بن مسعود كما عند الطحاوي وغيره من حديث أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: خمسة قد مضين من أشراط الساعة، وذكر منها الدخان. وجاء عن عبد الله بن مسعود رواية أخرى أنهما دخانان: دخان قد مضى، ودخان يأتي.

ولم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام في صفة الدخان شيء معلوم، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ في مكانه الذي يخرج منه شيء، ولم يثبت في نوع أذيته للناس شيء عن رسول الله ﷺ، هل هو مما يؤذي الناس فتهلك به نفوسهم، أو يحبس أنفاسهم ونحو ذلك؟ لم يثبت في تفصيل هذا من الأخبار شيء عن رسول الله ﷺ.

وبه يعلم أن الذي يذكره العلماء في هذا الباب ممن تكلم في أشراط الساعة أن هذا متعلق بجملة من الأخبار المعلولة، أو يتكلمون عن بعض الاجتهادات التي جاءت عن بعض السلف في هذا المعنى، وقد تحمل على أن لها أصلاً، أو تحمل على أنها من جملة الإسرائيليات التي لا يعول عليها.

طلوع الشمس من مغربها

ومن أشراط الساعة التي هي أعظم الأشراط السماوية ظهوراً: هي طلوع الشمس من مغربها، وطلوع الشمس من مغربها بها تنقطع التوبة، ولا ينفع النفس إيمانها.

ويظهر أن طلوع الشمس من مغربها بعد خروج المسيح الدجال ، وبعد خروج عيسى ابن مريم، وكذلك ما يتبعه من قتل عيسى ابن مريم للمسيح الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج فإن هذا يكون بعده، فإذا خرجت الشمس من مغربها على الحقيقة لا ينفع النفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وبه يحجب الناس عن التوبة.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان من أهل الإيمان والثبات قبل انفراط عقد أشراط الساعة ثبته الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الإنسان من أهل الاضطراب والنفاق، أو أهل الضلال، فخرجت عليه هذه الأشراط وانفرطت كالعقد ازداد حيرة؛ مما يرى من فتن عظيمة مدلهمة في الناس، فيضطرب ولا يستوعبها بحثاً ولا تفكيراً، ولا يجد من الوقت ما يتأمل فيه العبادة، وكذلك ما يجد من الفتن أو المقاتل، والشر، وما يجده أيضاً من اتباع الناس للمسيح الدجال مما يصرف الإنسان عن اتباع الحق، وكأنه ينتظر وينتظر حتى تخرج الشمس من مغربها؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو ظاهر من كلام الله عز وجل: ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الأنعام:158].

والمؤمن قد يثبته الله عز وجل إن لم يزغ كما جاء في حديث عمران إن اتبع المسيح الدجال ؛ وينبغي للإنسان أن يبتعد عن الفتن كما تقدمت الإشارة إليه، وأن يحرص على التزود بالإيمان، وإن رأى علامة من علامات الساعة فليعلم أن ما بعدها هو أشد منها.

خروج ثلاثة خسوف

ومن أشراط الساعة: هي ثلاثة خسوف التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في حديث حذيفة قال: (وثلاثة خسوف: خسف في المشرق، وخسف في المغرب، وخسف في جزيرة العرب)، وهذه الخسوف لم تظهر، وتحديد موضعها في الجزيرة هل هي في وسطها أو في أولها أو في آخرها؟ في أقصاها أو في أدناها؟ لا حد لذلك، وتحديدها أيضاً في المشرق والمغرب لا حد لها.

ولم تقع هذه الخسوف، ولكن قد يقع جملة من الزلازل، لكن لا يليق أن توصف بأنها هذه الخسوف؛ لأن هذه مقرونة بأشراط الساعة الكبرى، فناسب أن تكون معها؛ والنبي عليه الصلاة والسلام قال: (هي كالخرزات في العقد، إذا انقطع العقد تتابعت)، مما يدل على أنها تأتي بعدها، ومما يدل على أن هذه الخسوف أيضاً تكون متتالية.

وموضعها أن تكون بعد طلوع الشمس من مغربها، أو تكون مصاحبة للمسيح الدجال وعيسى ابن مريم، هذا محتمل، وسواء كانت هنا وهنا، فإن الإنسان مرده في هذا إلى التسليم بما جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك فحسب، وهي إن وقعت تزيد صاحب الإيمان إيماناً، وتزيد صاحب الحيرة والنفاق حيرة، وربما إعراضاً عما أمر النبي عليه الصلاة والسلام باتباعه.

وبه يعلم أن الفتن التي تظهر في آخر الزمان منها ما يملك فيه الإنسان أمراً، سواء ما يملك فيه صداً ومنعاً كمسألة المسيح الدجال بمقاتلته ومن معه، وكذلك ما يحدث من الفتن من مقاتلة الروم، وذلك قبيل خروج المسيح الدجال ، ومنها ما لا يملك فيه الإنسان أمراً كمسألة الخسوف، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، وظاهر الأمر أن الناس لا يتعرضون لها قتالاً، ويقفون أمامها في حيرة منها.

علة عدم إيمان بعض الناس عند رؤية أشراط الساعة مع تتابعها

وهنا إشارة إلى أمر مهم جداً قد يستلهمه الإنسان من هذه الأشراط، وهو أن هذه الأشراط إذا كانت متتابعة بمثل هذه الكثرة، وقد أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الأمر، فلماذا صاحب النفاق يزداد نفاقاً؟ ومن في قلبه مرض يزداد مرضاً؟ وصاحب الإيمان والثبات يعصمه الله عز وجل وإن لم يتعرض لهذه الفتن، أليس من الدلائل على نبوة محمد ﷺ؟

تقدم مراراً أن ملك الإنسان للنص، وعدم فهمه له على فهم النبي عليه الصلاة والسلام وفهم السلف الصالح قد يكون مضلة له من المضلات التي تضله عن الصراط المستقيم والمنهج القويم، ولكن إذا كان من أهل الفهم والدراية لمواضع الفتن، وكذلك تبعاتها عليه وعلى الناس فإنه يكون حينئذٍ من أهل العصمة، فالفتنة إذا أقبلت وجب على المؤمن أن يصد عنها، وألا يعترضها.

ظهور نار من اليمن تسوق الناس إلى أرض المحشر

ومن أشراط الساعة: ظهور النار من اليمن تسوق الناس إلى أرض المحشر، وأرض المحشر هي بلاد الشام، تلك الأرض المباركة جعلها الله عز وجل محشراً للناس وموضعاً للأمن، فبها ينزل عيسى، وبها يقتل المسيح الدجال ، وبها يكسر الصليب، وبها يفتح الله عز وجل على المؤمنين الفتوح، وبها تكون الملحمة، وينتصر أهل الإسلام على أهل الشرك والوثنية، فهي أرض مباركة، وقد دل

الدليل على فضلها في جملة من الأخبار عن رسول الله ﷺ.

وهذه النار قد تقدم الإشارة إليها أنها ليست هي النار التي تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، وتقدم الكلام معنا صفة هذه النار: أن تلك النار أضاءت ووقعت في القرن السابع كما نص عليه أبو شامة والإمام النووي ، وهي نار قد بقيت شهراً في الحرة من نواحي المدينة، وكان الناس يستضيئون بها في مسير الليل مسيرة شهر كامل، لقوتها ولهبها، حتى إذا سافروا إلى تيماء وما وراءها فإنهم يستضيئون بها عند ذهابهم، وهذا قد يكون من آثار ما يسمى بالبراكين ونحو ذلك، وسيلان الصخور وانتهت، قيل إنها على أميال وكيلو مترات، ولكنها تطايرت، وجزموا على أن تلك النار قد خرجت.

ولكن هذه النار هي تختلف عن الأخرى من جهة الخروج، ومن جهة المقصد منها، من جهة خروجها تخرج من اليمن، وتحشر الناس إلى أرض المحشر، وخروجها من اليمن يعني من أدنى جزيرة العرب حتى تبلغ أقصاها من جهة الشام، فلا تبقي في جزيرة العرب أحداً، وخروجها من اليمن ليس على سبيل السرعة.

وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الناس يكونون في ذلك على طرائق وطباق، والناس في ذلك يخافون منها سراعاً، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (رجل على بعير، ورجلان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير)، أي: كل منهم يريد أن يصل أرض المحشر؛ خوفاً من هذه النار، وهذه تكون بعد طلوع الشمس من مغربها؛ ولهذا إذا ظهرت في هذا الموضع، هذا الحشر للناس هل يكون لأهل الإيمان وأهل الكفر أم لا؟

تقدم معنا الكلام على أحد أشراط الساعة، وهي الريح التي يرسلها الله فتقبض أرواح المؤمنين، هل هذه الريح تكون في مثل هذا الموضع فتقوم عليهم الساعة؟ أم أن الريح تكون بعد طلوع الشمس وقبل هذه النار؟ لا دليل على ذلك، والمقطوع به أن الريح تكون بعد طلوع الشمس، ولكن هل تكون هي بعد حشر الناس أم تكون قبل ذلك؟ إلا أن الذي عليه الاتفاق أن الساعة لا تقوم على أحد من أهل الإيمان إلا وقد أرسل الله عز وجل الريح التي تقبض أرواح المؤمنين.

سقوط النجوم والكواكب واضطراب السماء

ومن أشراط الساعة المتعلقة بهذا الباب ما يحدث من كوارث سماوية من سقوط النجوم والكواكب واضطرابها في السماء، وهذا يكون بعد حشر الناس في الأرض في أرض المحشر من بلاد الشام، وهذا يكون فيما يظهر بعد قبض أرواح أهل الإيمان، وقيام الساعة على شرار الخلق، والمراد بشرار الخلق هم الكفرة، وقد يحتمل إذا قلنا بأن خروج النار بعد الريح التي تقبض أرواح المؤمنين أنه يوجد في جزيرة العرب من المشركين والمنافقين الخلص من تحشرهم النار؛ فإذا قيل: إن الشمس إذا ظهرت من مغربها أنه لا ينفع النفس إيمانها، وقلنا: إن الريح على الترجيح أنها تخرج بعد ذلك وقبل خروج النار فتقبض أرواح المؤمنين.

إذاً من تحشر من جزيرة العرب؟

تحشر الكفار والمنافقين مما يدل على أن لهم كثرة؛ وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (رجل على بعير، ورجلان على بعير،

وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير)؛ لكثرتهم فلا يجدون ما يركبون من كثرتهم في جزيرة العرب، مما يدل على وجود الكفرة والمنافقين الخلص فيها، فتحشرهم النار إلى أرض المحشر، فتقوم عليهم الساعة.

وبهذا يستنبط إلى أن ما يشاهد مما يسمى بالحضارة المدنية من المركوبات أن هذا يندثر؛ ولهذا يركبون على البعير، ويمتطونها للوصول إلى أرض المحشر، بل يقال: إن هذا يندثر قبل ذلك كله، وقبل وجود أول أشراط الساعة الكبرى، كما جاء عن النبي ﷺ في قتال المسلمين للروم أنهم يقاتلونهم بالسيوف على نهر الأردن، كذلك جاء في حديث أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى في نطق الشجر والحجر: (يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله)، فهذا الخبر أن أسلحتهم فيها من الأسلحة ما تسمى بالأسلحة باليدوية أو الأسلحة البيضاء من السهام والرماح، والسيوف، وهذا فيه إشارة إلى زوال الحضارة الحديثة وقرب ذلك، وهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه (ما من شيء ارتفع إلا وضعه) كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، بل إنه مكن للأمم السابقة ما لم يمكن لهذه الأمة، فسليمان بنى صروحاً من زجاج لا يشركها فيها شيء.

ولم تستطع الحضارة الحالية أن تصنع أبراج من الزجاج لا يشركها فيها شيء، ربما صنعت من المعادن الخالصة والثقيلة ولم تستطع هذا، مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد مكن لأهل الأرض السابقين من الحضارة، والقدرة ما لا يخطر على بال أحد، وهذا قد جعله الله عز وجل سنة في كل الخلق، فأنت ترى الرجل صبياً، ثم يكون شاباً، ثم يكون كهلاً، ثم يكون هرماً، فيرجع إلى أرذل العمر، وأنت ترى النار توقد من شرر أو توقد من فتيل ثم تلتهب، ثم ترجع ما كانت عليه، وأنت ترى كذلك العين تنبع من الأرض كأحسن ما يكون، ثم تنضب حتى تجف، وكذلك ترى الشجرة ينبت من الحب، فيخرج كأجمل ما يكون، ثم يرجع إلى ما كان عليه، فهذه سنة قد جعلها الله عز وجل في خلقه، كما أنها في الأفراد كذلك في مجموع الحضارة، وما جعل الله عز وجل شيئاً مرتفعاً إلا وضعه.

تتالي ثلاث سنوات من الجدب والقحط

ومما ينبغي أن ينبه له أن خروج المسيح الدجال ، وهو من أوائل أشراط الساعة الكبرى، وهو بعد الملحمة والمقتلة التي تكون بين المسلمين والروم، يسبق ذلك علامة من العلامات وأمارة من الأمارات التي لا يذكرها من يتكلم على أشراط الساعة على أنها من أشراطها، وقد تكون من أماراتها، وهي ثلاث سنين جدب وقحط متتالية.

وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان في ملأ من أصحابه فذكروا المسيح الدجال، فقال: (ثلاث سنين يأمر الله السماء بأن تمسك ثلث مائها، والأرض ثلث نباتها، وفي السنة الثانية يأمر الله عز وجل السماء بأن تمسك ثلثي مائها، ويأمر الله عز وجل الأرض بأن تمسك ثلثي نباتها، وفي الثالثة يأمر الله عز وجل السماء بأن تمسك كل مائها، والأرض أن تمسك كل نباتها)، وفي هذا إشارة إلى القحط وهي ثلاث سنوات، وتحمل على ثلاثة أعوام.

وقد سأل أصحاب رسول الله ﷺ قال: (ما يعمل الناس؟ قال: التكبير والتسبيح والتهليل)، أي: أن عليهم أن يلجئوا إلى ذكر

الله عز وجل والاستغفار والتوبة، ثم يكون بعد ذلك خروج المسيح الدجال ، وتكون في ذلك فتنة.

ولعل في هذا حكمة عظيمة أن الله سبحانه وتعالى حينما جعل هذا الجدب والقحط في الناس، فيخرج المسيح وفي يده الخيرات، يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، ويحيي الموتى، وتتبعه كنوز الأرض كجذوع النخل كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من الذهب والفضة، وكفى بذلك فتنة.

المطلوب من المسلم عند سماع أشراط الساعة

النبي عليه الصلاة والسلام ما ذكر هذه الأشراط وعلم بها أصحابه إلا ليبادر الناس بالتوبة، وأن يستبدروا أمر الله عز وجل، وقد جاء في جملة من الأخبار أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (بادروا بالأعمال ثلاثاً)، وقال: (بادروا بالأعمال ستاً)، يعني: بادروا قبل أن تأتيكم هذه العوارض، فلا تستطيعون معها عملاً، مما ينبغي للإنسان أن يبادر بالأعمال لماذا؟ حتى يتمكن من ربط قلبه فيعصمه الله عز وجل من الفتن، فإذا تمكن العمل من الإنسان وقوي إيمانه عصمه الله سبحانه وتعالى من الانحراف عن طريق الحق؛ ولهذا يعصم الله عز وجل العالم العامل من الوقوع في الفتنة، وأما الذي يتعذر بلا عمل فهو أقرب إلى الوقوع في الفتنة من غيره، وكذلك من يعمل ويتعبد بلا علم فهو أقرب من جميعهم.

وفي هذا كفاية، والله أعلم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.

الأسئلة

الجمع بين وجود المسيح وعدم البقاء بعد مرور مائة عام على أي إنسان

السؤال: كيف نجمع بين حديث تميم الداري بأن المسيح الدجال موجود الآن، وما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه (لا يبقى على ظهرها أحد بعد مائة عام) ممن هو موجود الآن؟

الجواب: الحديث الذي ذكره (لا يبقى على ظهر الأرض أحد) هو في الصحيحين، وهو (أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة العشاء، فالتفت إلى أصحابه وقال: أرأيتكم ليلتكم هذه لا يبقى على ظهرها ممن هو عليها أحد على مائة سنة)، يعني: أن بعد مائة سنة لا يبقى على ظهرها أحد، ويأخذ بعض العلماء من هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد بذلك البشر قطعاً؛ لأنه على ظهرها من الشجر ما هو يعمر، فمن النبات ما هو يعمر، ولا يتبادر إلى الذهن أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد كل من على البسيطة، وإنما أراد من بني آدم، ومن هذا يؤخذ: هل المسيح الدجال من ذرية آدم أم لا؟ هذا احتمال يخرجه، والأمر الآخر أن المسيح الدجال قد يكون مستثنى إلا أن الاستثناء بعيد؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لا يبقى على ظهرها ممن هو عليها أحد)، ويحتمل أيضاً أن من هو على ظهرها لم يكن حينئذٍ المسيح الدجالعلى ظهرها، فيكون في باطنها في كهف أو في بئر كما جاء في ظاهر حديث تميم الداري .

ضعف بعض أحاديث الفتن وأشراط الساعة

السؤال: كما تعلم أن غالب أحاديث الفتن وأشراط الساعة ضعيف، فهل يمكن أن يعول عليها خصوصاً أن بعض الأحاديث الضعيفة قد توافق وتطابق الواقع؟

الجواب: ما كان ضعيفاً نبينه في الأغلب، وما كان منكراً وموضوعاً لا نورده، وهذا شرط قد بيناه في السابق، وما كان محتمل القبول وله طرق تعضده فإنا نورده، وأكثر أشراط الساعة هي من الصحيح لذاته، أو لغيره، أو الحسن لذاته أو الحسن لغيره بمجموع الطرق، ومنها الضعيف والواهي.

الربط بين يهود أصفهان والشيعة ممن يتبعون المسيح الدجال

السؤال: هل يقال بأن يهود أصفهان الذين سيتبعون المسيح هم الشيعة؟

الجواب: اليهود يهود، والشيعة شيعة، وبينهم تشابه، إلا أن النص صريح بأنهم اليهود.

دعوى عدم وجود خطر على الجزيرة العربية

السؤال: ما حكم القول: إن الجزيرة ليس عليها خطر من اليهود والنصارى؛ وذلك بسبب دعاء النبي عليه الصلاة والسلام وحفظها أم أن ذلك من أشراط الساعة؟

الجواب: ليس بصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا لجزيرة العرب على وجه العموم، ثم ما هي جزيرة العرب؟ هل هي نجد أو الشرقية أو الجنوب؟ لا ينبغي أن نأخذ إطلاقات مما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من فضائل مكة والمدينة، ثم نعممها، لا يمكن عصمة لبلد من البلدان إلا ما خصه الدليل من حفظ مكة والمدينة من المسيح الدجال ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما نظر إلى المدينة أخبر أن الفتن في بيوتنا كمواضع القطر، وهي في المدينة، وذكر أنه يأتي ذو السويقتين فيهدم الكعبة، وهذا في الصحيحين وغيرهما، فإذا كان هذا في الكعبة فكيف بغيرها، ولا يوجد عصمة لبلد من البلدان إلا ما خصه الدليل في صور مخصوصة أيضاً، إلا أن الله عز وجل تكفل لهذه الأمة ألا يسلط عليها من أعدائها من يستبيح بيضتها، فيأخذها عن بكرة أبيها، لا، ولكن يسلط عليها الفتن فمن يقتل منها ويصيب ويؤذي، ويأخذ الأموال، ويسلب الخيرات ويقتل الأنفس.

دعوى أن خروج الشمس من المغرب ليس بمعجزة

السؤال: هناك دكتور عندنا في الجامعة يقول: إن خروج الشمس من مغربها ليس بمعجزة؟

الجواب: يقول الشاعر:

بدلوا لفظ الفقيه بغيره ومن العجيب محدثون دكاترة

والله لو علم الجدود بفعلنا لتناقلوها في المجالس نادرة